الرواية المرشحة في القائمة القصيرة لمجلة "ذا مليونز" الأدبية كأفضل كتاب لعام 2020

فريق متميزون

E-BOOK

جزيرة الفئران

كريستوس أويكونومو

ترجمة: نيرة إبراهيم

العربي

قصص قصيرة مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

جزيرة الفئران

مجموعة قصصية مترجمة..
الرواية المرشحة في القائمة القصيرة لمجلة "ذا مليونز" الأدبية كأفضل كتاب لعام ٢٠٢٠

كريستوس أويكونومو
ترجمة: نيرة إبراهيم

سوف أبتلع أحلامك

سأخبرك كيف حدث ذلك، سأخبرك كيف حدث وما كان يجب أن يحدث. سأخبرك عن الدماء التي أُريقت والدماء التي كان يجب أن تُراق. أتذكر كل شيء، أتذكر الأمر كله، وما أتذكره يفوق ما حدث فعلًا.

سبق وحذروه ثلاث مرات. لا مرة ولا اثنتين، بل ثلاث مرات:

- "تاسوس"، أيها الوغد، لن ينتهي هذا الأمر على نحو جيد، سوف ترى ما نخبئه لك. "تاسوليس"، سوف نشعل النار في منزلك، ولن تطرح حقولك سوى الرماد. سوف نقطع رقاب أبنائك ونهتك عرض زوجتك.

في المرة الثالثة، ربطوه في غطاء محرك سيارته وجرّوه عبر مغسلة السيارات، عبر الصابون والفرش والمجففات الصناعية وكل المعدات. مكث أسبوعًا في المستشفى بأسنان مكسورة وجسد مسلوخ من الفرش والمواد الكيميائية. كانت مجرد رؤيته تثير الغثيان، تمامًا مثل "مانوليوس" في رواية "المسيح يُصلب من جديد".

حينها طفح الكيل بـ"ماجدا" فأخذت الأطفال وهربت إلى أثينا، قائلة لـ"تاسوس" أنه إذا فعل أيًا مما كان يخطط له فلن يراها مجددًا، لا هي ولا أبناءه؛ حيث قرر أن يذهب إلى الشرطة ويخبر المحطات التليفزيونية والإذاعية بما حدث وينشره على الإنترنت كذلك. طاوعها "تاسوس"، لكنه لم يكن لينسَ الأمر. ظل يتحرك في كل مكان متذمرًا، متسببًا في إغضابنا جميعًا.

كانت الجزيرة كلها تعرف أن "زيليناكيس" هو من كان خلف ذلك، ولكن لم يتفوه أحد بكلمة، لا نحن ولا الفئران. لم نفعل ذلك لاحقًا حتى. من هنا يملك العقل السليم لكي ينطق بالحق؟ جميعهم هنا كالمافيا، لكنها ليست مثل ذلك الهراء الذي تراه في التليفزيون؛ رجال عصابة يحملون السلاح، وكأنهم موكب كبير من أشباه دون "كورليون". إذا تكلمت، فهي نهايتك. ارفع رأسك يفجرونها لك. السبب الوحيد الذي يجعلني أحكي لك ذلك الآن هو أننا في ساعة متأخرة من الليل ولا أحد ينصت لنا، فالريح ترمي كلامي بعيدًا، عدا ذلك كنت لأبقي فمي مغلقًا أنا الآخر.

ولمَ كل هذا؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق. مجموعات تضامن، شبكات مستهلكين، عدم التعامل مع الوسطاء والمندوبين. مسكين "تاسوس". كانت لديه كل تلك الأحلام؛ أن نبني جمعية تعاونية خاصة بنا، أن نبدأ سوقًا للمزارعين، أن نساعد الناس، أن نحقق أشياءَ لم ترها اليونان من قبل، بلا رؤساء عمل وبلا أحزاب متعنتة، بلا تضليل أو عهود معوجة. الوغد المسكين.. منذ اللحظة التي دخل فيها الجزيرة، بدأ في التذمر، محاولًا أن ينظمنا وينظم

الفئران أيضًا. وما الذي حققه؟ لا شيء. صفر. ما لبث الظلام أن ابتلعه. ومن أجل ماذا؟ من أجل حزمة بصل أخضر وكيلوين اثنين من الطماطم، كما يُقال. من أجل لا شيء على الإطلاق.

لاحقًا، في المرة الثانية بعدما جروه لـ"أبسيثيا"، تدخلت كل أثينا محاولين إقناعه أن يستسلم. سلكنا كل الطرق لكي نرجعه إلى رشده. اختطفه ثلاثة أو أربعة أشخاص ملثمين بأقنعة تزلج وهو في طريق عودته من الحقول، ربطوا يديه وقدميه، وربطوا كيسًا أسود حول رأسه، وأبحروا به طوال الليل في مركب آلي على البحيرة – وأعني بذلك أنهم كانوا على المركب ويجرون "تاسوس" المرمي في المياه بحبل. تركناه وشأنه بعد تلك المرة أيضًا، لكن العنيد لم يستمع لأحد. فقط قام بسبنا، نعتنا بالعبيد، ضعاف القلوب، الجبناء. كان يقول:

- كيف تتحملون ذلك؟ كيف تتحملون مشاهدة هذا اللعين "زيليناكيس" وهو يستغل الجزيرة بأكملها؟ كيف تتحملون عجزكم عن بيع منتجاتنا هنا حيث نعيش، لأن هذا الوغد يأتي ويأخذها كلها بنصف الثمن لينقلها إلى أثينا، حيث لا يبقى أمامنا سوى شراء الطماطم من هولندا والبطاطس من مصر؟ هذا أسوأ من العصور الوسطى. حتى في العصور الوسطى كانت الأمور أكثر منطقية.

بالطبع ذكَّرناه بأننا جميعًا لسنا من هنا، كلنا غرباء، فإذا كان "الفئران" (السكان المحليون) تحت كنف "زيليناكيس"، فماذا نحن بفاعلين؟ نحن مجرد حفنة من الناس، لا يعنينا إذا كان وغدًا أم لم يكن، ففي نهاية المطاف هو المسؤول عنا، هكذا هو النظام. من يتقلب في الذرة سوف يأكله الدجاج، تلك هي المقولة – لا أذكر الدجاج قاصدًا الجبناء أمثالنا - أقصد دجاجًا حقيقيًا. لكن "تاسوس" لم يتزحزح، لم يهتم لما نقوله. كان فقط ينعتنا بالعبيد، عديمي الشخصية، الإمَّعات. ثم، في إحدى المرات، أحضر جوالًا من البرتقال ورماه على الأرض وقال:

- اقرؤا هذا، تمعنوا في معناه: "فواكه "زيليناكيس" المحدودة، برتقال سرَّة، المصدر جنوب إفريقيا، تحذير، القشرة غير صالحة للاستهلاك الآدمي، محفوظة بالإيمازاليل والثيابندازول". أترون ما يحدث؟ برتقالنا يتعفن في أقفاصه، وهذا الوغد يستورد برتقالًا من إفريقيا منقوعًا في المبيدات الحشرية. سوف أخبركم أمرًا آخر. حسنٌ، فلنقل إنكم على حق وأن هكذا هو النظام، وأن الذئاب سوف تظل تربح الملايين نتاج كدِّي وكدِّكم، نتاج عرق جبيننا. فلنقل إن كلًا منا أتى إلى تلك الدنيا ليرى حاله هو فقط لا غير. أنا لا أصدق ذلك، لن أصدق ذلك أبدًا، ولكن فلنقل جدلًا أن تلك هي حقيقة الأمر، لمَ لا نغير ذلك الواقع؟ لماذا نستسلم دون أن نحاول؟ لماذا لا نقول لـ"زيليناكيس" وكل من مثله: "اسمع، لقد حصدت الملايين من هذا المكان،

الآن على كل منكم البدء في الاستغناء عن عشرة آلاف، أو عشرين ألفًا، أو ثلاثين ألفًا في السنة كي نتمكن من بناء خزانات حتى لا نفقد كل هذا الماء القادم من المطر". أو: "اسمع يا "نيكتاريس"، كم دفعت من أجل هذا الجناح المطل على البركان؟ ألفًا في الليلة؟ حسنٌ، بدءًا من الآن سوف تدفع عشرة بالمئة من أرباحك السنوية في بناء الطرق والأرصفة والحضانات، وفي إعادة بناء تلك العيادة التي دمرها الزلزال، وفي إبقاء عبَّارة تعمل في الشتاء حين يُقفل خط السياح، وفي إنهاء محطة تحلية المياه ومحطة معالجة المياه. وهذا من دون إبداء أي اعتراض منك، هكذا سيكون الأمر". أعني، لماذا تعتقدون أنه لدى كل هؤلاء الصينيين والروس القابلية على دفع ألف في الليلة للمكوث في هذا الجناح؟ هل السبب هو "الجاكوزي"، أو الزبادي اليوناني على طاولة إفطارهم؟ كلا، بل يصرفون هذا المبلغ الكبير لأنهم حين يخطون بالخارج عند تلك الشرفة يسحرهم المنظر: نصف بحر "إيجة" أمامهم، والبركان. "حسنٌ، إذا كنت ستستغل الجزيرة، فللجزيرة نصيب في هذا أيضًا. ليس لك الحق أن تأخذ كل شيء بكل بساطة. يا "كيريا إيلينورا"، إذا كنت ستبيع الغروب في شاطئ "ماجو" كي يدفع هؤلاء البلهاء مائة يورو للفرد ليأكلوا سمك "الدنيس" القادم من المزارع وسمك "دنيس" من السنغال. حسنٌ، سوف تعطي هذا القدر يوميًا لكل منا كي نضع صناديق القمامة في الشوارع، حتى لا يضطر "ميناس" إلى أن يدور ببغله ملتقطًا القمامة من بين الحصى كما لو كنا في الستينيات. هكذا الأمر، لقد جردتم هذه الجزيرة من كل شيء طوال تلك السنين، لقد أكلتموها لحمًا وتركتموها عظمًا. حان الوقت الآن لتدفعوا الثمن. حان الوقت لتفعلوا شيئًا لهذه الجزيرة، وبما أنكم لن تفعلوا ذلك من تلقاء أنفسكم، فسنجبركم نحن. ستدفعون الثمن لا شك. حان الوقت الآن، جاء دوركم لتدفعوا الثمن".

كان يقول أشياءَ مثل تلك، الهراء نفسه الذي تقرأه على الإنترنت للمدون التقليدي الباحث عن تجربة جنسية ممتعة. وفي كل مرة، بداية من المرة التي أدخلوا فيها مسدسًا بفمه، مرورًا بالمرة التي كادوا أن يغرقوه في البحيرة، وأخيرًا تلك المرة التي جرُّوه فيها عبر مغسلة السيارات - والتي خرج منها كالمجزوم – ظل يتفوه بالهراء نفسه. ومع ذلك، فلاحقًا، في رأس السنة، عندما تركته "ماجدا" غاضبة، حيث أخذت الأولاد وهربت إلى أثينا وكادت ألا ترجع، ظل يتفوه بالهراء نفسه. لم ينجح شيء في أن يرده إلى صوابه.

لم يمل من ترديد الهراء.

ولم كل ذلك؟ من أجل لا شيء. طماطم من هولندا وسمك "هامور" من السنغال.

هذا هو ما دمر "تاسوس" – قشر البرتقال اللعين، "الإيمازاليل" و"الثيابندازول".

العدل والتضامن، هذا ما أنهى "تاسوس" أخيرًا. العدل والتضامن، كلمات فارغة يقولها الفقراء، ليس لأنهم يؤمنون بها، بل لأنهم فقراء.

ولكن لم يتخيل أحد منا أنه سوف يلقى هذا المصير.

تخيلنا جميعًا أن النهاية ستكون أكثر رجولة وأكثر بطولة، مثل تلك النهايات التي تُعرض على التليفزيون والإنترنت؛ نهاية تُجبر أشباه البشر الذين ندعوهم بالساسة أن يخرجوا ببيان أو اثنين في البرلمان. وحتى الآن عندما نصعد أعلى المأوى وننظر إلى البحر، نقول إنه كان يجب أن يختار لنفسه نهاية أخرى أكثر بطولة ورجولة. نتذكر كل الجنون الذي كان يتفوه به عن الخير الذي سيأتي من البحر، ونقول إنه إذا كان قد فعل شيئًا بطوليًا ورجوليًا، كان من الممكن أن يسمع الناس عنه ويقاوموا مثله. ربما كان سيحدث أمر جديد، ربما كان سيتغير شيء. لا أعرف، ربما.

يمكن أن تقول إنها قصص خيالية، ولكن، أتعرف؟ يحتاج الناس إلى قصة خيالية جيدة من وقت لآخر. لقد اخترع الناس القصص الخيالية وملؤوها بالوحوش حتى لا يصبحوا وحوشًا هم أنفسهم، لأن الحقيقة قد تحولك إلى وحش. يجب أن تصبح وحشًا إذا أردت أن تتحمل الحقيقة.

توقعنا من "تاسوس" شيئًا أكثر بطولة ورجولة. اعتقدنا أنه سوف يصبح شمشون.. شمشون الذي أخذ الآخرين معه حين رحل، والذي قتل أناسًا في موته أكثر مما قتل في حياته. هذا ما توقعنا، ولكنه خان توقعاتنا.

ظننا أن لدينا شمشون، ولكن اتضح أنه ليس سوى "كوبين".

يا لها من خيانة!

وعلى الرغم من ذلك يتفق جميعنا أن في هذه الأيام والبلد في الحضيض، فإن الرجل الحقيقي.. البطل.. ليس هو من يحارب الشر، بل هذا الذي يتعلم أن يتعايش معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ترد السيدات الدخول إلى الكهف، ولا إلى "المأوى"، ولا حتى إلى كهف آخر. من يحتفل بعيد الفصح في كهف؟ أنحن بدائيون؟

كانوا يقولون أشياءَ كهذه:

- ماذا لو حدث زلزالٌ آخر وتهاوى الكهف فوق رؤوسنا؟

رمت "لينا" ببعض التعليقات في البداية وسرعان ما هدأت. ولكن الآخرين كانوا في حالة ثورية كاملة. أكثرهم كانت "ماجدا"، التي كانت مقتنعة أن "تاسوس" هو الذي أثار تلك الفكرة في عقول الباقين، فلم تكف عن التذمر وعن إزعاجه بالحديث المستمر عن مخاوفها، وكأنها كانت تعرف ما كان على وشك الحدوث، على الرغم من قولهم إن على المرء ألا يؤمن بالعلامات. لم يستمع "تاسوس" لها، فهو اتخذ قراره ولن يتراجع، ولا حتى نحن. كنا نقول إنها جلبة لا حاجة لها، وأن الاحتفال سيكون رائعًا. إنه عيد جديد على اسم "تاسوس"، من حقه أن يختار مكان الاحتفال. بالإضافة إلى ذلك، ونظرًا لواقع الأمر، سوف نرجع جميعنا إلى العيش في الكهوف عاجلًا أو آجلًا. فلنتدرب إذًا.

لم نكن نقول ذلك عبثًا، كنا نصدق ما نقول. كنا وما زلنا نصدقه. كل هؤلاء الساسة اللعينين، اليونانيين والأجانب منهم على حد سواء، سوف يرجعوننا إلى العصر الحجري. سوف نعيش جميعنا في الكهوف حاملين الهراوات ومرتدين جلود الحيوانات.

سوف نكون محظوظين إذا ظلت النار بحوزتنا.

بالإضافة إلى ذلك، فمعظمنا لم يحتفل بعيد الفصح على الجزيرة من قبل، وكنا نتمنى كلنا أن نبتعد عن "الفئران" قدر الإمكان. من عادة "الفئران" أن يحتفلوا معًا في الشوارع والميادين، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك؛ طوال السنة يخونون بعضهم ويصارعون بعضهم بعضًا، ثم يأتي عيد الفصح وإذ فجأة تراهم أسرة واحدة.. فئران! بالطبع ليس من العدل أن ننعتهم بذلك. هذا ليس عادلًا في حق الفئران الحقيقية؛ أقصد أن حتى الفئران لا تفعل هذا الهراء. فلنأخذ قصة "لازاروس" على سبيل المثال، الرجل الذي يلقبونه بـ"القوس"، والذي اختفى ابنه بعد "تاسوس" بفترة ليست ببعيدة. هو واحد منا، لديه حانة في "أبيسالوس" يربي في باحتها الخلفية الدجاج والديك الرومي وما شابه. اكتشف في مرة أن البيض لم يكن موجودًا في قفص الدجاج، فظن أن الفئران قد تمكنوا من الدخول إلى القفص. ظل يعصر مخه محاولًا أن يفهم كيف تمكنوا من سرقة البيض دون كسره، ولكن باءت محاولته بالفشل. ذات ليلة قرر أن يراقب المكان ليعرف كيف يفعلون ذلك؛ وما الذي اكتشفه؟ فأر منهم كان يتسلل إلى القفص، ثم يمسك البيضة بأرجله الأربعة كلها في الوقت نفسه، ثم يتدحرج ليستلقي على ظهره. بعد ذلك يأتي فأر آخر وبعض الأول من ذيله ويجره خارج القفص ليرجعا إلى عشهما. أترى؟ هكذا تعيش الفئران الحقيقية، بروح الفريق الواحد. أما عن هؤلاء الناس، فهم يبحثون باستمرار عن طرق يورطون بها بعضهم، وعندما يتَّحدون، يفعلون ذلك فقط ليورطونا نحن بدلًا منهم.

لقد ابتعدت عن مساري، فقد جئت لأقول شيئًا آخر.

ذات مرة حدثت مشكلة كبيرة بخصوص إناء التعميد. منذ حوالي شهر قام شخص بسرقة الإناء من كنيسة "سانت ياتِّيس المحارب" الموجودة فوق الجبل، فحاولوا أن يلومونا نحن على هذا الفعل. قالوا إن الأثينيين سرقوه. أنكرنا هذا الاتهام بشدة، وقلنا لهم:

- ما الذي سنفعله بإناء بحق الجحيم؟! أسنحوله إلى حمام سباحة للأطفال؟!

كان ردهم: "لا، بعتموه لأنه من النحاس. بعتم الكيلو بعشرة يورو، وهو إناء يزن المئة كيلو، مما يجعل الحصيلة ألف يورو كاملة في جيوبكم". كان ردنا: "حسنٌ، إذا كنا سنقوم بالعد إلى الألف، فعلى الأرجح أن زوجاتكم وبناتكم قد تخلين عن شرفهن ألف مرة هذه السنة، فلنبدأ بعدِّ ذلك".

ملاعين، أوغاد ملاعين. لم تكن لكمات أي من الجانبين خفيفة يومها، صدقني، كان الأمر مروعًا. في البداية كانوا يقولون إننا نسرق وظائفهم، ثم أصبحنا نسرق حقولهم، والآن جعلونا سارقي أواني تعميد لعينة من كنائسهم. أتسمع ذلك أيها الريح؟ أتسمع من يتحدث بكل ثقة عن السرقة؟ هؤلاء الأوغاد الذين استدرجونا لنأتي لهذه الجزر التي تشبه جحور الثعابين، ثم قاموا بنشل كل ما كان بحوزتنا من المال في فنادقهم وحاناتهم. كل هذه السنين كانوا يسرقوننا، والآن هم يمقتوننا. هذا الأبله "تاسوس" كان على حق. كل تلك السنين ونحن نسرق اليونان، والآن بعد أن خربت البلد أصبحنا نمقتها. هكذا حالنا معهم؛ الآن بعد أن أفسدونا ولم يتبق لهم شيء يسرقونه، أصبحوا يمقتوننا. وكأننا أردنا أن نترك بيوتنا ونأتي إلى هنا في آخر العالم مثل آدم في المنفى.. كما لو لم نكن أصلًا من هنا، كما لو لم نكن جميعنا من عِرق واحد: يونانيين.

في الإثنين النظيف حدث أمر ما مع الألمان. جاءت محطة تليفزيون ألمانية في فترة الصيف قبل عامين لتصور برنامجًا مدته ساعة عنَّا. أتتخيل هذا؟ "يونانيون مهاجرون في بلادهم: أثينا المطلة على بحر إيجة".. هكذا كان الأمر. لا أعرف كيف انتشر الخبر، ولكن سرعان ما كان هناك زحام خارج أبواب منازلنا؛ محطات تليفزيون، وصحف من كل أنحاء العالم، وفرق تصوير، ومصورون، وصحفيون. في ليلة وضحاها أصبحت "أثينا المطلة على بحر إيجة" أشبه بسيرك "ميدرانو". بعدها بدأ الصينيون في المجيء على دفعات، وكان غريبو الأطوار هؤلاء يدفعون "إيلفيس" إلى الجنون، فعلى ما يبدو أن مقابلة شخص قد نجا من سفينة غارقة يجلب الحظ لدى الصينيين. فور علمهم أن "إيلفيس" قد سبق ونجا، ليس من غرق سفينة واحدة، بل ثلاث، جن جنونهم. أتحدث عن هستيريا، لم ترَ شيء مثل ذلك من قبل. كانت هناك صفوف في الشارع، أناس ينتظرونه بالساعات فقط ليلمسوه أو يأخذوا منه التوقيعات، وكانت كثيرٌ من الفتيات الصينيات المرتديات فساتين العُرس يجلسن على حجره، ويتدللن، ويأخذن الصور معه لجلب الحظ السعيد لأنفسهن. كنَّ حتى يدعونه ليصبح إشبينًا في أفراحهم.. أتحدث عن جنون كلي. بالطبع لم يزعج

ذلك "إيلفيس" على الإطلاق، حيث استطاع أن يتحرش بتلك الفتيات من وقت لآخر، وكان يكسب المال أيضًا - كان يضع صندوق تبرع تقليدي مثل صناديق الكنيسة، وكانت عليه قائمة أسعار، وفي المساء حين ينتهى العرض كان يذهب إلى حيث يمكث الأمريكان ويبادر بشراء الخمر للجميع، ويسكر من شرب "التسيكوديا". ظل الأمر على هذا الحال طوال ما يقارب سنة، واستمر حتى ليلة في شهر مايو عقب ما حدث لـ"تاسوس" بوقت قليل، حيث كان عند المنارة، والتقى بفتاتين صينيتين قد جاءتا في رحلة بحرية، وكانتا مخمورتين أيضًا، الرب وحده يعلم ما فعلوه تلك الليلة، ولكن في مرحلة ما كل من كانوا في الحانات على امتداد الميناء رأوهما تركضان شبه عاريتين وهما تصرخان وتبكيان، وبعدها رأوا "إيلفيس" ينطلق مسرعًا على دراجته النارية، وكانت النهاية. اختفى تلك الليلة ولم يره أحد بعدها. بحثنا عنه في كل مكان، قلبنا الجزيرة رأسًا على عقب، ولكن حتى الدراجة النارية لم نجدها. اختفى دون أثر.

أول من اختفى كان "تاسوس"، ثم "إيلفيس"، ثم ابن "لازاروس". كيف يختفي الناس بهذا الشكل؟ أتعرف كيف؟ لا أفهم كيف بوسع المرء أن يختفي بكل بساطة.

هذا مخيف، أليس كذلك؟

ولكن هذا أيضًا ليس ما قصدت أن أقول. كنت أفكر في أمر آخر.

كنت أتحدث عن السياح. لقد كنا الأشهر في المنطقة منذ سنتين، ومازلنا. يوقفنا الناس في الشوارع، ويزورون بيوتنا وأفنيتنا دون دعوة ليقوموا بتصويرنا كما لو كنا قرودًا في حديقة الحيوان. ستجدنا حتى في الكتب الإرشادية. قبل أيام حدثت جلبة كبيرة في "تورتورا". كانت هناك أرض معسكر قديمة هُجرت منذ سنين، واقتحم غريبو الأطوار السنة الماضية المكان ووضعوا أيديهم عليه. كانوا حوالي ثلاثين شخصًا، وضعوا لافتة على البوابة تقول: "لا لرجال الشرطة، أو الفاشيين، أو السياح، أو أي حثالة". في البداية كان هناك بعض المناوشات بينهم وبين رجال الشرطة، والذين حاولوا أكثر من مرة أن يطردوهم خارج المكان، لأن "الفئران" ادعوا أنهم كانوا يخرجون في الليل ليسرقوا الدجاج أو ليأخذوا البطيخ من الحقول، وهنا خطرت للأثينيين فكرة عبقرية؛ أن يغرقوا أنفسهم بالجاز مهددين بأنهم سوف يحرقون أنفسهم؛ فتراجع رجال الشرطة؛ والآن غالبًا ما يتركونهم وشأنهم. نحن أيضًا لا نكترث لأمرهم، فلا هم يزعجوننا ولا نحن نزعجهم. هم يتسكعون هناك فحسب، يدخنون الحشيش، ويلعبون الجيتار والطبول، ويزرعون الطماطم والفاصولياء الخضراء، ويزدادون كرهًا للمجتمع. هذا ما قالوه لـ"تاسوس" في مرة عندما أصر أن يتحدث معهم بشأن "زيليناكيس"، مقترحًا أن ينضموا له في الجمعية التعاونية التي كان يريد أن ينشئها:

- نحن نزرع بأنفسنا كل ما نحتاج، وهذا يتضمن الكره المزروع بداخلنا تجاه مجتمعكم.

وبعد أن قالوا له هذا، طردوه من المكان. بعد ذلك بأيام قليلة، حدث صخب كبير لأن بعض الحمقى ذهبوا إلى هناك، لا أعرف أهم من النرويج أو السويد أم من أين، وتسلقوا الجدار وبدأوا في التقاط الصور، قبل أن يخرج لهم هؤلاء المدمنون ويطاردونهم بمضارب في أياديهم. أحدث "الفئران" مشكلة كبيرة بسبب هذا الموضوع، فهم يقولون إننا نطرد السياح من المكان في حين أنه يجب علينا أن نصبح شاكرين للدعاية المجانية التي ينشرونها عنّا في جميع أنحاء العالم. أخبرونا بحادثة "إيلفيس" مع الفتيات الصينيات، وحتى ما حدث قبل ذلك مع الألمان، وصاحوا ونعتونا بكل الأوصاف التي يمكن أن تتخيلها. كانوا يقولون:

- الأجانب الملاعين، سحقًا لهم ولليوم الذي وضعوا فيه أقدامهم على هذه الجزيرة.

لم يكونوا يتحدثون عن السياح، بل كانوا يتحدثون عنا نحن.

أتذكر الآن، كنت أريد أن أحدثك عن الألمان.

في يوم الإثنين النظيف أخذ اثنان منا عائلاتهما للميناء ليأكلوا في مطعم "ماريكا". كانت مجموعة من الألمان تجلس على الطاولة المجاورة لهم، وفي مرحلة ما نهض أحد الألمان، وكان قد أسرف في الشرب، وبدأ في التقاط صورٍ لهم. قال أحد رجالنا:

- ماذا بك يا هذا؟ ما الذي يستدعي التقاط الصور؟ ألم ترَ أناسًا يأكلون من قبل؟

هنا التفت لهم الألماني الوضيع، أتعرف ماذا قال لهم؟ قال:

- أنا ألتقط صورًا لكم لأن هناك على طاولتنا طلبنا طبقين من السلطة وزجاجتين من البيرة لنا جميعًا، أما أنتم فتأكلون كما لو كانت نهاية العالم، تأكلون بمالنا نحن.

يمكنك أن تخمن بقية القصة. رجالنا كانوا قد شربوا أكثر مما ينبغي، فأخذوا هذا الألماني وباقي مجموعته، ولم يتركوهم إلا وهم على وشك الموت. لولا قدوم رجال الشرطة لاستمروا في ضربهم بلا توقف. لم ترَ شيئًا مثل هذا من قبل. قام رجال الشرطة الحمقى بالقبض على رجالنا وأرادوا أن يحبسوهم، فتوجهنا جميعنا إلى قسم الشرطة وقلنا لرئيس الشرطة:

- من الأفضل أن تحترس لأفعالك وإلا سوف نهدم هذا المكان؛ ويمكنكم حينئذ استخدامه كحانة شاطئ بدلًا منقطة شرطة.

أطلقوا سراحهم في النهاية، ولكن هؤلاء "الفئران" الأوغاد أثاروا غضبنا جميعًا مرة أخرى عندما قالوا إننا نشوه سمعة الجزيرة ونطرد السيَّاح منها. أترى ماذا أعني؟ بدلًا من أن يفعلوا شيئًا بشأن هؤلاء الملاعين الذين يأتون إلى هنا ويطاردوننا طوال اليوم بكاميراتهم وكأننا إنسان الغاب، كل ما يفعله هؤلاء الأنذال هو مطاردتنا معهم.

عبيد النظام، تلك هي حقيقتهم. جبناء.

"أجانب".

هكذا يسموننا: "أجانب".

"أجانب"، "دخلاء"، "نحل". تلك هي دعابتهم في هذه الجزيرة: أننا نحل، مثل الأسراب التي قدمت من آسيا الصغرى.

في مرة قال مسن من "الفئران" لـ"تاسوس":

- هنالك شيء واحد جيد فيكم جميعًا أيُّها الدخلاء؛ بفضلكم تذكرنا كلمات قد سبق ونسيناها.

يسموننا "غرباء". يسموننا "أثينيين"، أيضًا. حتى أولئك القادمين من "بيرايوس". ولا داعي لذكر القادمين من "لاريسا" و"ثيسالونيكي" و"باتراس". لا يهم من أين أتيت، ففي نظرهم، جميعنا أثينيون. والحي بأكمله ابتداء من كنيسة "سانت مارينا" حتى "الحفر" يسموننا بـ"أثينا الصغيرة". لا يهم من أين نأتي بالفعل، في نظرهم كلنا أثينيون. أثينيون، نحل، أجانب.

أجانب.

نحن، أجانب.

حسن، أعرف، استرسلت في الكلام مجددًا. ولكنه يعوقني، يلقي بعقلي في دوامة، مثل ترس خرج عن مساره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أحد تلك الأيام التي لا تصدق أنها ما زالت موجودة بالفعل حتى الآن. لا أعرف أي عيد فصح اعتدتم إياه، ولكن هذا اليوم كان أحد تلك الأيام التي تظن أنك لن تراها مجددًا، وكأنهم قد تخلصوا من هذه الأيام كما تخلصوا من كل شيء. إذا حدقت في زرقة السماء يومها لشعرت أنك على وشك البكاء لأنك وُلدت بذراعين بدلًا من جناحين. تخيل أنه بإمكانك أن تضغط زرًا فتتفجر إلى ألف قطعة؛ إلى شظايا دقيقة؛ وأن الفتات بإمكانه أن يطفو في جميع الاتجاهات، صاعدًا إلى قمة "جبل الحرب"، سارحًا إلى حيث البحر.. متناثرًا على امتداد كيلومترات، فوق البحيرات، والينابيع، والبساتين، وحدائق الزيتون، ومزارع العنب، ونتوءات الصخور، والمراعي، والغابات، والمنحدرات المغطاة

بالصخور، ثم فوق السهول، والكباري، والطواحين، والكنائس، والأديرة، وفوق المنارات، والموانئ، ومراكب الصيد، ومرافئ القوارب، وفوق الشجيرات، والأشجار، والعرعر الصيني، والريحان، وأشجار الصنوبر، والخروب، والبلوط، والتنوب، والأرز، والصنوبر، والزان، والجوز، والكستناء.. أن تتفجر إلى ألف قطعة، وتطفو في جميع الاتجاهات. كيف ستشعر بالعالم بحق وأنت محبوس في هذا الجسد المحدود؟ هكذا كان يوم عيد الفصح هنا. حتى النساء هدأن ونحن نصعد إلى "المأوى". أردن أن يتوقفن مرتين ليلتقطن الأزهار؛ وأذكر أنني رأيتهن يجرين مع الأطفال على جانب الطريق وهن يضحكن ويصحن، أذكر كيف أشرقت وجوههن في ضوء الشمس، وكيف داعب النسيم شعورهن، وكيف كن يرفعن تنانيرهن فوق الركب كي لا تشبك في خمائل الأشجار، وكيف كن يفردن حمالات صدرياتهن على أكتافهن، وكيف ضممن الأطفال واحتضننهن، وكيف زينَّ شعور البنات بالأقحوانات وزهور الخشخاش الحمراء كالدم، وكيف كن ينظرن إلينا بأعين لونها كلون التربة بعد المطر. أذكر أننا – الرجال - كنا ننظر لهن ونقول إن النساء هن التروس التي تجعل الأرض تدور، ثم ذكرنا كم يخيفنا كل ذلك؛ كم هو مخيف أن تكافح لتبني حياة لنفسك مجددًا من الصفر، محاولًا أن تتخلص من أسوأ المخاوف، وهو ليس الخوف من الموت: بل الخوف من الحياة، الخوف من العيش، الخوف من عيش حياة يملؤها الخوف؛ الخوف من الحياة هو ما يجعلنا نموت شيئًا فشيئًا كل يوم.

كنا كالقافلة، قرابة أربعين شخصًا، بما في ذلك النساء والأطفال. كنا سبعة؛ عائلتي وعائلة "تاسوس"، وزدنا حوالي سبعة أشخاص عندما انضم لنا "بالساموس" و"تريمو"، و"سيس" و"كريسا"، و"ميناس" و"يوتا" والتوأم. كان "سالاماندر" هناك مع ابنته "كاسيا"، وقتها لم يكن قد فقد شعره بعد، "لازاروس" كان هناك أيضًا، والذي اختفى ابنه بعدما اختفى "تاسوس". وكذلك أرملة "هارمليس" هناك، والتي يجلس ابنها المختل عقليًا على كرسي متحرك. انضمت لنا أيضًا "ريتا"، والتي فتحت محلًا للحيوانات الأليفة في العام الماضي، وبنَت مقابر للقطط والكلاب في "دراكيانا": المكان الذي يذهب إليه غريبو الأطوار ليدفنوا قططهم وكلابهم المسماة بـ"إيرما" أو "سيبسينا" أو "جووفي"، ويضعون صورهم فوق القبور، بالإضافة إلى مصابيح الزيت والصلبان، وحتى شواهد القبور المنتصبة والمحفور عليها: "أحبك يا روبي، سوف يذكرك أمك وأبوك إلى الأبد". حتى أنهم يدفنون هناك البط والسلاحف والأرانب! تغضب منا "ريتا" حين نقول لها أن عليها أن تبني مقبرة فقط للفئران، وأنها سوف تجني المال من هذا في لمح البصر. هناك أناس لا يستطيعون تحمل تكلفة دفن آبائهم وأمهاتهم، في حين يبني هؤلاء الأوغاد قبورًا من الرخام لقططهم وكلاب حراستهم. سحقًا لمدينة الفئران العفنة هذه، سحقًا لهذا المكان بأكمله. انضم لنا "إيلفيس"، و"ميديس"؛ والذي يسمونه بـ"المتفجر"، لأنه فجر يده اليمنى بالديناميت. جاء كذلك "ستاثيس"،

حارس الأمن في المصحة العقلية، وجائت "إيلينا" عديمة الشرف مع زوجها، لم نكن متأكدين إذا كان سيسعه الكهف برأسه وقرونه الكثيرة. جاء الإخوان "كومبوس"، و"توميس"، وهذا الشاب، "زاك" المشلول، و"كارونيس" المعتوه، والذي يعمل على تاكسي مائي، ينقل السياح في الصيف. أطلق على قاربه اسم: "مايكل رئيس الملائكة". كان يأخذ السيَّاح في رحلات على ضوء القمر، ويغني لهم أجزاءً من من أغنية "الإروتوكريتوس" وهو يعزف العود، ويحكي لهم قصصًا في ثلاث لغات عن عفاريت وتنانين وحوريات، تلك هي البداية التقليدية، لن تصدق كم نحن مبتكرون في بدء الأعمال، ونحن نحاول أن نغطي نفقاتنا.

في آخر لحظة أقنعنا المسن "جوجويس" أن يأتي، وهو رجل في السبعينيات من عمره قد طرده أحفاده من البيت هذا الشتاء كي يحولوه إلى نُزُل، و"باباي"، أيضًا، والذي علق تحت الأنقاض لمدة يومين بعد الزلزال الكبير الذي حدث في "بارنيثا"، فجحظت عيناه من رهبة ما حدث - والذي عندما بدأت الزلازل تحدث هنا أيضًا، قام بإخراج خوذة ألمانية قديمة كانت لجده، وكان يخفيها من الاحتلال، ومنذ ذلك الحين وهو يلبسها صباحًا ومساءً، تحسبًا لتهاوي السقف فوق رأسه في أي وقت. كانت هناك أيضًا وجوهًا جديدة؛ بضعة أزواج بلا أطفال، والشقراء، واللذان يعملان في خدمة التنظيف لدى "كورليون ثيودوراكيس"، و"مانوس" الذي يعتني بالإطارات البلاستيكية للصوبات الزراعية، والذي هجرته زوجته لاحقًا، و"أريادنيه"، أرملة الشرطي، جاءت تدفع رضيعها في عربته.

جاء كل الأثينيين، كل "الأجانب".

أغلبهم لم يكن قد صعد إلى "المأوى" من قبل، وبعضهم لم يدخل كهفًا في حياته. في الفجر كان "تاسوس" و"تريمو" وآخرون قد صعدوا إلى هناك ليجهزوا المولدات والأسياخ ويشعلوا النار. خططنا أن نتجمع في الكهف، في الساحة الواسعة المستوية التي تجدها على يمينك حين تدخل. هناك جهزنا المكان لنأكل ونشرب ونبدأ في الاحتفال. في الكهف. جهزنا الفوانيس وأشعلنا المواقد، وحين شرعنا في الرقص كانت ظلالنا ترقص معنا، أصبحنا مئة أو مئتين روح، وكأن لكل منا ظلان. في سُكرنا كنا نظن أننا حشد هائل، فزاد عددنا الوهمي من جرأتنا. كنا نقول إنه علينا أن نتدرب، أن نجرب هذا الأمر، أن نعتاده بقدر المستطاع، فمملكة الكهوف قادمة عن قريب، وسيأتي الوقت الذي نضطر فيه بالفعل إلى العيش في الكهوف. بعد ذلك جمعنا العظام من لحم الضأن الذي سبق وأكلناه، ووضعناها في ركن مظلم في باطن الكهف كي يجده الناس الذين سيعيشون هنا في وقت ما، بعد مُضيِّ عدة قرون؛ هذا إذا ظل هناك أناس على الكوكب حتى ذلك الوقت. ربما وقتها تكون البشرية قد اخترعت وسائل متطورة تخبرهم بأننا قد سبق وجئنا إلى "المأوى" في أحد أيام عيد الفصح، في هذه الساعة بالتحديد، وأننا بقينا طوال

هذا الوقت. وتخبرهم بعددنا جميعًا: بعدد النساء، والرجال، والأطفال، وأننا أكلنا هذا الكم من لحم الضأن.. من يعلم؟ ربما سيصبحون متقدمين كثيرًا لدرجة أنه سيكون بإمكانهم أن يرونا ويسمعوننا، وأن يبعثوا ظلالنا من جديد، وصدى أصواتنا، ويبعثوا صوت نسائنا وهن يصحن وأطفالنا وهم يضحكون، فدعنا ألا نخدع أنفسنا.. جزء صغير في كل منا يظل باقيًا في هذه الدنيا إلى الأبد. لهذا السبب كل مكان على وجه الأرض يعم بظلال وأصوات وضحك وبكاء الأموات، ولكننا لا نرى أي من ذلك ولا نسمعه، لأن هكذا يجب أن يكون الأمر.. هكذا يجب أن يكون أمر الأحياء؛ لولا ذلك كيف ستستمر في العيش؟ سوف تجن! لهذا أرى أنه ربما علينا ألا نخبيء تلك العظام على أية حال، لأنني لا أريد أن أشغل بالي باحتمالية قدوم يوم يستطيع الأحياء فيه أن يروا ويسمعوا الأموات على أجهزة اللاب توب والمحمول الخاصة بهم، فالمسيح نفسه قد أحسن القول حين قال "فليدفن الأموات أمواتهم"، وأن الرب ليس إله الأموات، بل إله الأحياء.. على الرغم من أنني أظن أنه إذا حدث ذلك أو لم يحدث، سواء تركنا عظامنا خلفنا أم لا، فمن نحن لنحدد ماذا يخبئه لنا المستقبل وكيف سيصبح الناس بعد خمسين أو مئة سنة؟ ولكنني ما زلت أعتقد أنه إذا كان الأحياء أقل اهتمامًا بالأموات وأكثر اهتمامًا بأولئك الذين لم يولدوا بعد، لكان العالم مكانًا أفضل.. ولكن، أكرر، من يعلم؟ كان هذا هو نوع الهراء الذي قاله "تاسوس" في الساعات اللاحقة، بعدما شربنا عشرة لترات من البرميل الخشبي حتى الثمالة وفتحنا برميل النبيذ الأحمر الذي أحضره "ميديس".

ولكني استبقت الأحداث، فقد ضللت طريقي مجددًا.

عندما صعدنا إلى المأوى، عاندت النساء وعارضن الفكرة. حسنٌ، لقد كانت وجهة نظرهن سديدة. لن أنكر أننا كنا في الخلاء، والجُرف والبحر أسفلنا؛ كنا في مكان يقود المرء إلى الجنون. كانت لديهن وجهة نظر، ولكننا جميعًا كنا متساوين في ذلك اليوم في حشد كبير بما يكفي لئلا يخيفنا شيء. ولكن بعدها بدأ "كارونيس" المعتوه في طقسه المعتاد. قال إنه هناك حفرة بلا قاع في نهاية الكهف تبتلع كل من يقترب منها بلا رجعة.. وأنهم قد وجدوا منذ بضع سنين هياكل عظمية صغيرة في الكهف لأطفال صغار معلقين على أوتاد.. وأنه منذ بضع سنين قبل ذلك اغتصب بعض الشبان سائحة في الكهف ثم قاموا برميها من فوق الجُرف، وإذا أنصت جيدًا ستسمعها في المساء وهي تبكي وتصرخ.. وأن صيادًا جاء إلى هنا في السنة الماضية ووجد رضيعًا متروكًا خارج الكهف، وعندما اقترب منه بدأ الرضيع في الضحك، وبدت أسنانه وكأنها أسنان فضية، ولكن في الحقيقة كانت مئات من الدود الأسود المتدفق خارج فمه. وأنه ذات ليلة جاء شباب من "تافيا" بحثًا عن العملات المعدنية القديمة، وحين تعمقوا في الكهف رأوا سائلًا سميكًا لونه أحمر مثل الدماء آتيًا من الأعلى ويسيل على الصخور، وعندما اقترب أحدهم ولمسه حرق يديه. وأنهم

بعدها رأوا نارًا كبيرة يجلس حولها جنود في دائرة، يلبسون سترات وأحزمة خرطوشة، وكانت لديهم شعور ولحى طويلة. كانوا غارقين في الدماء من الرأس إلى القدم، وأن الشباب القادمين من "تافيا" عانوا أشد معاناة ليخرجوا من الكهف، وفور خروجهم وجدوا جميع ساعاتهم مكسورة، وكل ساعة تظهر وقتًا مختلفًا عن الأخرى. لم يكف "كارونيس" المخبول عن هذا الكلام، ولم يقدر أحد أن يوقفه.

لم يكن الأمر لينتهي إلى هذا السوء لو كان على الأقل حكى القصص التي يحكيها للسياح عندما ينزههم على مركبه في ضوء القمر، قصصًا عن الأيام الخوالي مليئة بالحوريات والأميرات والساحرات ذوات العيون الخضراء، بدلًا من قصص عن الحاضر. قصص من العام الماضي أو حتى الحالي.. وكأن الخوف قد أصبح تكنولوجيا هو الآخر، نسخة جديدة من الخوف تصدُر كل مرة استدرت فيها، وتحديثات لا تنتهي، "آيفون"، "آيباد"؛ "آي-خوف"، "آي-سحقًا لكم جميعًا" بهواتفكم المحمولة وأجهزة "التابلت" الخاصة بكم وأشباحكم. كان هذا الأحمق مقنعًا جدًا لدرجة أن أبداننا اقشعرت، كما يقولون.

على أية حال، في النهاية اتفقنا على حل وسط. أردنا - نحن الرجال - أن نجتمع داخل الكهف، والنساء بالأسفل عند الأشجار، ولكن في نهاية المطاف بقينا عند مدخل الكهف، لا نحن بالداخل ولا بالخارج. ولكن النساء لم يكن ليستمتعن بوقتهن. ظللن قلقات من أنه بإمكان الأطفال أن يتسللوا داخل الكهف، أو يتجولوا بالخارج قرب الجُرف، أو يتسلقوا الأشجار. وظللن يشتكين منا، من كوننا جعلناهن يأتين كل هذا الطريق إلى "المأوى" في عيد الفصح، ولم نذهب عوضًا عن ذلك إلى "أبيسالوس"، أو "ماهايرا"، أو "أجيوبس"، أو على الأقل عند أي شاطئ: "ماجو"، أو "كاتيرجو"، أو "بيكرونيري". كن يسألننا عما إذا كانت هذه الأماكن قد مُسحت من الخريطة، وعما نفعل بالأعلى هنا في الخلاء في إجازة مثل هذه؟ نحن رجال مسئولون عن عائلات، ما شأننا بالصحاري والكهوف؟

كن جاهزات للشجار، ولكن نظرًا لكونه يوم عيد قررنا أن نظهر جانبنا الحسن.

نظرًا لأهمية اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثملنا من القطرة الأولى. أظن أننا كنا ثملين حتى قبل أن نشرب. الضوء. بالتأكيد كان هذا الضوء هو السبب. كان شديد البياض والنقاء لدرجة أنه يكاد يحجب رؤيتك. حتى في الظل، في مدخل الكهف أو تحت الأشجار كنت لتشعر أن ضوء الشمس يحتضنك؛ يزحف فوقك وكأنه كائن حي يريد أن يتسلل إلى داخلك ويتخلص من ظلمتك. لم يكن هذا ممكنًا، بالطبع.

ضحكنا وحسب. ضحكنا ونحن ننظر إلى ظلمة الكهف وتجاويف الأشجار وهي تحملق بنا بأفواه سوداء مفتوحة. ضحكنا، وكانت لضحكاتنا أصداء في السواد الذي أحاط بنا، وفي السواد بداخلنا.

أخذ "تاسوس" ابنه الصغير على حجره، وقال له:

- يا "كوستيس"، أتستطيع أن تقلد صوت الدجاجة؟

- كو كو كو.

- والقطة؟

- نياو نياو.

- والحمل؟

- *زززززز*.

أتفهم ما حدث؟ عندما سمع صوت السيخ الكهربائي وهو يدور ظن أن هذا هو صوت الحمل: "*زززززز*".

ضحكنا. ضحكنا كثيرًا هذا اليوم. قرصنا خدود "كوستيس" وعبثنا بشعره.. لم نعرف.. من المفترض أن الأطفال شديدو البراءة، ولكني لا أصدق هذا. قبل أيام طلب مدرس ابننا - وهو أحقر الأوغاد - من الفصل أن يكتب موضوع إنشاء عما لو كانوا طعامًا، فأي طعام يختارون. كتب الولد أنه إذا افترض أنه طعام، فيحب أن يكون حساءً، كي يحتسيه الفقراء ويشعرون بالدفء. أتسمع ذلك أيها الهواء؟ عمره لا يتعدى سبعة سنين، وهذا ما كتب. بالطبع، طبقًا لما يراه ويسمعه، ماذا تتوقع منه أن يكتب؟

أعطاه المدرس الجائزة الأولى، وحياه قائلًا:

- برافو يا "بيتراكيس"، أنت أفضل من في الفصل.

في اليوم التالي، بعد انتهاء الدراسة، بدأ اثنان أو ثلاثة أولاد معه في الفصل نفسه بمضايقته، وكانوا من أبناء "الفئران". قالوا له:

- يا "بيتراكيس"، نحن فقراء ومساكين، فلتجلس ساكنًا حتى نأكلك.

ثم كتفوه وقاموا بعضِّه في كل جسده حتى أصبح مغطى بالكدمات. أسمعت ما فعل هؤلاء الأوغاد الصغار؟ عضوه بالفعل، أقسم لك. في النهاية ركلوه بضع مرات، ثم رموه في الوحل. جاء يومها إلى البيت غارقًا في الوحل والدموع، وماذا وجدنا؟ آثار العض في كل جسده؛ في ذراعيه ورجليه وحتى ظهره. في البداية لم يستطع حتى أن يتكلم، فكان يرتجف كورقة في مهب الريح. عندما احتضنته ارتجف جسدي كله؛ ارتجف بسبب ارتجافي. حكى لنا بعد فترة ما حدث. لك أن تتخيل كيف صعد الدم إلى رأسي. أردت أن أجد

هؤلاء الصعاليك المدللين وأقطعهم إربًا، ولكن منعتني "لينا". خافت أن يزيد ذلك الأمر سوءًا. قالت إننا بمفردنا هنا، فنحن وحيدون وهم كثرة. نحن دخلاء هنا، من سيحمينا؟ بالطبع كانت على حق. الأفكار نفسها كانت تدور في رأسي صباحًا ومساءً منذ أتينا إلى هنا. نحن بمفردنا، نحن دخلاء.. من سيحمينا؟

أسوأ ما في الأمر هو البحر. أظننت من قبل أنك ستسمع مني هذا الكلام؟ ولكن هذه هي الحقيقة. هذه الجزيرة سجن، والبحر هو القضبان. إذا كنت على البر وحدث شيء، ما عليك إلا أن تتجه إلى التلال وتجهز سيارتك وترحل. ولكن كيف من المفترض أن تهرب من مكان مثل هذا؟ أعني، إلى أين ستذهب؟ صدقني، الجزيرة سجن. بالنسبة إلى ناس مثلنا، هي سجن. استغرقتُ وقتًا طويلًا لكي أتعلم هذا الدرس. ولكنها حقيقة. سجن.

كانوا يعرفون بضعة أشياء أيام الحرب الأهلية، عندما اعتادوا نفي الناس إلى الجزر، وحدث ذلك وقت الديكتاتورية أيضًا. الآن رجعنا إلى الهراء المعتاد نفسه. ستقول إننا لدينا الديمقراطية الآن. حسنٌ، وقتها كانوا ينفون الناس إلى الجزر بالعنف، والآن نحن نأتي بأنفسنا. هناك فرق كبير، أليس كذلك؟ نعم.

في النهاية لم أحاول أن أجد هؤلاء الصعاليك. تصرفت كالدجاجة: مكثت في عشي وكظمت غضبي. قلت لنفسي: "الصبر.. الصبر.. بعد كل عسر يسر".

- أتستطيع أن تقلد صوت أبيك يا "بيتراكيس"؟

- كو كو كو.

كنت أقول لنفسي وقتها أنك إذا لم تشعر بالجبن، فلن تصبح رجلًا. أنا أؤمن بذلك. حقًا، أؤمن بذلك. قبل أن نأتي إلى هنا لم تخطر ببالي تلك الفكرة، أنك إذا لم تشعر بالجبن، إذا لم تعرف هذا الشعور حين تخشى أن تقول الحق، وأن تهتف، وأن تحارب، إذًا لستَ برجل. وأنك أيضًا إذا لم تخنك امرأة من قبل، فلست برجل حقيقي.

ولكن هذا موضوع آخر.

أعرف، شُتت انتباهي مجددًا. ولكني سبق وقلت لك أن تروس عقلي قد خرجت عن مسارها.

- ما الصوت الذي يصدره أبوك يا "بيتراكيس"؟

- كو كو كو.

- يا "بيتراكيس"، ما الصوت الذي يصدره أبوك؟

- كِو كو كو.

- أتستطيع أن تقلد صوت أبيك يا "بيتراكيس"؟

- كو كو كو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رقصنا في مدخل الكهف. رقصنا في دائرة اتسعت، ثم ضاقت، ثم انقسمت إلى عدة دوائر صغيرة. جميعنا رقصنا؛ من يجيد الرقص ومن لا يجيد. رقصنا كما لو كنا نخطو على فحم محترق. رقصنا يدًا بيد وذراعًا بذراع وكتفًا بكتف. رقصنا حاملي أطفالًا؛ أبناءنا وأبناء غيرنا. رقصنا مع هذا الشعاع الغريب الذي ألقته الشمس علينا لتصبح لنا ظلالًا بيضاء لا سوداء. رقصنا والضوء يتخلل أوراق الأشجار وغصونها، راسمًا علينا ظلالًا تبدو وكأنها أيادٍ بيضاء تحتضننا بسلاسة، أيادٍ بيضاء تلمسنا وتلمس زوجاتنا وأبناءنا. سوف تفكر، ها هو ذا يستطرد في حكايات عن أيادٍ بيضاء وأفواه سوداء، ولكني قلت لك في البداية إنني سأذكر كل شيء، فأنا أتذكر كل شيء. أتذكر ما حدث وما لم يحدث. أتذكر ما كان من الممكن أن يحدث وما كان واجبًا حدوثه. أتذكر كل شيء، وسأحكي لك كل شيء، شئت أنت أم أبيت.

رقصنا رقصة "التساميكو". رقصنا رقصة "الكالاماتيانو"، و"البالو"، و"السوستا". رقصنا رقصات من "إبيروس"، رقصنا كل ما نعرف من رقصات. "تسيفتيتيليا"، و"زيبيكيكا"، و"هاسابوسرفيكا". رقصنا رقصات لم يشهدها أحدٌ من قبل. رقصات وليدة اللحظة نحن ابتدعناها. رقصنا بأعين مغمضة، دابِّين أرجلنا على الأرض، مسقفين بأيدينا في الهواء، وتذكرنا في خِضَم الرقصات حفلات واحتفالات ليالٍ جامحة من الماضي. تذكرنا ما سلف لنا من حب قديم ومن سُكر صاخب. ثم شعرنا بقلوبنا تنقبض، وأعيننا تحترق. أردنا أن نصيح ونبكي، وأن نطلق العنان لأنفسنا ونهدم عالمنا.. أن نحرقه فلا يتبقى شيء. أردنا ألّا نُبقي شيئًا سوى الرماد. أمسك "تاسوس" بمسدس "سيس" وظل من وقت لآخر يبتعد عن الباقين ليطلق النار في الهواء. بدت كل طلقة - بسبب صدى الصوت - وكأنها عشر طلقات. وضعت السيدات والأطفال أيديهم على آذانهم من الدهشة. جفلوا كفريسة الصيد، كالغزلان المسلط عليها ضوء مصابيح السيارة الأمامية. ضحك "تاسوس" واستمر في إطلاق النار. عمَّر المسدس، وأطلق النار، ثم ضحك بوجه مشوه بندبات حفرتها الأغصان، وبأسنان مكسورة كالسور المتهدِّم. لم أره يضحك بهذا الشكل منذ زمن. السبب - جزئيًا - هو أنه لم يحب إظهار أسنانه.. فعندما ربطوه في غطاء محرك سيارته وساقوه خلال مغسلة السيارات، تكسَّر صف أسنانه الأمامية الاصطناعي، فأصبح يخجل من أن يضحك، حتى أنه أصبح يتلعثم قليلًا. لهذا السبب لم يعد يتكلم كثيرًا، لأنه لم يرد الناس أن ترى أسنانه، وأيضًا بسبب التلعثم. أترى؟ تلك هي نوعية البشر التي كنا نجمعها هنا في السنين الثلاثة السابقة. أناسًا

يخجلون أن يضحكوا. أناسًا بأسنان مكسورة. أناسًا كالأسنان المكسورة. مكسورون. مصدوعون.

أناسًا على هذه الشاكلة.

لا أتذكر ما حدث بعد ذلك. أعني، بالطبع أتذكر، ولكنّي لا أريد أن أذكره. قلت لك، أنا أتذكر كل شيء. أتذكر ما حدث وما لم يحدث وما كان من الواجب حدوثه. أتذكر كل شيء. ولكني تعبت. تعبت من الكلام، تعبت من التذكُّر.

أشعر بالبرد.

الجو في غاية البرودة هنا.

ترى كم هي الساعة الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمَّر "تاسوس" المسدس وأطلق النار، ظل يعمِّر ويطلق ويغمغم. في مرحلة ما ذهبت له طالبًا أن يحذر، فنحن لا تنقصنا مشاكل أخرى - لم أكن أعرف وقتها - وسمعته يحدث نفسه. سوف تقول لي، وإن يكن! جميعنا يفعل ذلك. نحن الأجانب، نحن الأثينيين جميعنا يحدث نفسه. بداية، نحن نتحدث طوال الوقت - نتحدث ونتحدث. إنه أمر عجيب. نتكلم ونتكلم، ونثرثر، أينما كنا وأيًا ما كان المستمع. وإن لم يكن هناك مستمع، نحدث أنفسنا. جميعنا يحدث نفسه. أنا أيضا لست باستثناء. أتعرف كم مرة وجدت نفسي وأنا في الحقل أحدث الخيار والطماطم؟ البعض يحدث الكلاب أو القطط أو طيور النورس، والبعض الآخر يحدث القدير أو الموتى أو أناسًا متروكين في الوطن الذي رحلوا عنه، أيًا ما كان هذا الوطن. في ليالي الشتاء يقف الناس متكاتفين عند الشباك ويحدثون الظلام. فلنفترض أنك لست بشرًا، بل ليلًا، أو هواءً، أو نار المدفأة، أو الدخان الذي يصعد من تلك المدفأة أو من الموقد الخشبي. إذا كنت أنت الدفء والعَبَق الذي ينبعث من الخشب المحترق، هذا الدفء الذي يمدُّك بالأمل الطفيف بأن كل شيء لم يُفقد بعد، أملًا تتمنى ألَّا يموت فور تحوُّل الخشب إلى الفحم، إلى كتلة سوداء. إذا كنت أنت أحد تلك الأشياء، كنت سمعتهم وهم يتحدثون بالساعات في الظلام، يتحدثون مع أضواء الجُزُر على طول الطريق، أو مع السفن العابرة. والآن بما أن الهواء أفضل قليلًا، يخرجون بالليل ويتحدثون مع القمر والنجوم أو الرياح. أحدهم يحدث الـ"سيروكو"، والآخر يحدث الرياح الشمالية. تمامًا مثلي الآن.

جميعنا يحدث نفسه.

لأننا لا نقدر على تحمُّل الصمت. يا له من عبء كبير.

أعرف ما ستقول. لا مغزى من قوله، أنا بالفعل أعرف ذلك. سوف تقول إنه يجب على المرء أن يصمد ويحتفظ بمشاعره لنفسه، أن الألم الحقيقي دائمًا صامت. أن ما يهمُّنا بالفعل يصعب البوح به في إطار كلمات - أفهم كل ذلك، أفهم وأتفق معك. ولكن حين تعيش على جزيرة تختلف الأمور. هنا الكلمات نوع من الراحة، وكأن الكلمات تخفف من أثر الخوف. في بعض الأحيان أفكر أن الإنسان البدائي تعلم الكلام كي يخفف عن نفسه الخوف الذي تملكه في الكهف الذي كان يمكث فيه. وهنا في الجزيرة تعلمنا أن نتكلم طوال الوقت، نحدث أنفسنا ونحدث أي شيء على الإطلاق، لكي نخفف من الخوف الذي يتملكنا في هذا المكان الذي انتهى بنا الأمر إليه. الجزيرة هي كهفنا. لهذا نحدث أنفسنا. لأن الصمت يربي الوحوش. الصمت يربي الخوف.

جميعنا نتحدث طوال الوقت. مع أنفسنا ومع أي شيء على الإطلاق.

الوحيدون الذين لا يتحدثون هم السكان المحليون: "الفئران". لا يتفوهون بشيء أكثر من الضروري جدًا. ماذا ستقول لأولئك؟ بالإضافة إلى هذا، حتى إذا أردت أن تتحدث معهم، يجب أن تتعلم لغة أخرى. خذ كلمة "بيت الشجرة" على سبيل المثال. ماذا نعني في مسقط رأسنا حين نقول "بيت الشجرة"؟ نعني البيوت الصغيرة التي بنيناها في الأشجار حين كنا أطفالًا، حين كنا نتسلّق ونفترض أنها حقيقية. أليس هذا معنى الكلمة؟ حسنٌ، هنا عندما يقولون "بيت الشجرة"، يقصدون البيوت التي يبنونها للأشجار. فلنفترض أنك لديك شجرة ليمون وأنك بنيت حولها حائطًا حجريًا صغيرًا حتى لا يسقطها الريح. يطلق "الفئران" على هذا "بيت الشجرة". والآن، فلتحاول أن تتواصل مع أناس على هذه الشاكلة. مع العلم أن هذا مثال بسيط، أليس كذلك؟

مثال بسيط.

فهناك الأكثر والأكثر.

مثلًا، نحن نسب كثيرًا.. كثيرًا جدًا. والنساء والأطفال كذلك، جميعنا نسب. لن تصدق نوع البذاءة الذي نتحدث بها. أحيانًا نمزح بأننا اخترعنا لغة جديدة، اللغة الـ"سوقية". أتعرف حين نقول إن أحدهم يتحدث الإنجليزية أو السويدية - حسنٌ، جميعنا نتحدث الـ"سوقية". سوف أخبرك أمرًا آخر ولتضحك إذا شئت. أحيانا أعتبر ذلك أكثر الأشياء رعبًا. كوننا نسب ونلعن من الصباح حتى المساء. كوننا نستيقظ ونحن نسب وننام واللغة الـ"سوقية" تلوث ألسنتنا. هذا يخيفني. منذ أن قدمنا هنا توقفنا ببطء عن التحدث كما نفكر، وأصبحنا نفكر كما نتحدث. لا أعرف إذا كنت تفهم ما أريد قوله. بدلًا من أن تصنع عقولنا الكلمات، أظن أن الكلمات أصبحت هي التي تصنع عقولنا. ما أقصده هو أنه إذا اعتدت على أن تلقب كل النساء بالعاهرات، وكل الرجال بالأوغاد، وكل الأطفال بالصعاليك، سوف تبدأ بالتدريج أن تعتقد أن هذا هو واقع الأمر: أن كل النساء عاهرات، وكل الرجال أوغاد، وكل الأطفال صعاليك. ولا أظن أنه

سيصنع فرقًا إذا كنت تعتقد أن زوجتك ليست بعاهرة، أو أن أطفالك ليسوا بصعاليك، أو أنك أنت نفسك لست وغدًا. لن يصنع فرقًا على الإطلاق. لن يصنع فرقًا إطلاقًا.

لقد استرسلت في الكلام مجددًا. أردت أن أقول شيئًا آخر.

ذهبت إلى "تاسوس" لأطلب منه أن يتمالك نفسه، ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك، لأن فور وصولي إليه أعطاني المسدس وجرى بعيدًا. كان قد أرسل الولد القادم من "لاريسا" ليبحث في الأسطوانات عن أغنية معينة أراد أن يسمعها. انطلق "تاسوس" مثل الطلقة تجاه ساحة الرقص عندما وجد الولد الأسطوانة ولوح له بها.

- هذه هي أغنيتي. فلتفسحوا المجال، هذه هي أغنيتي المفضلة.

"أي الشغف اللامتناهي

اللامتناهي

هو شغفي..."

هل رأيت من قبل رقص السديم فوق البحر، في شهر نوفمبر أو ديسمبر، عندما تهدأ رياح "السيروكو"؟ هل رأيته وهو يصعد، ثم يدور، ثم يختفي، ثم يظهر لاحقًا مرة أخرى، قبل أن يختفي مجددًا، حتى تكاد تعتقد أن "السيروكو" ما هي إلا خدعة تخدعك عيناك بها؟ هكذا كان يرقص "تاسوس" تلك الليلة.

"وكالمطر الهادئ

كالمطر

تنهمر دموعي"

وقفت وشاهدته من على بعد، مداعبًا بإصبعي زناد المسدس. تخيلت المسدس قاذفة لهب، وتخيلت نفسي أضغط على الزناد، وتخيلت المكان وهو يشتعل بأكمله، مثل "دير أركادي" خلال الثورة الكريتية. كنت ثملًا للغاية وقتها.

في غضون ذلك كان كلهم جاثمين على ركبهم ويسقفون. "ماجدا"، و"لينا"، و"يوتا"، و"ريتا"، و"كريسا". "إيلفيس"، و"فالساموس"، و"سيس"، و"تريمو"، أتذكرهم جميعًا. خلع "ميناس" قميصه وضرب بيديه على صدره مثل "طرزان"، بينما تدحرج "سلاماندر" على الأرض وهو في غاية الثمالة، وكاد "زاك" أن ينقلب بكرسيه المتحرك - حتى "باباي" المجنون خلع خوذته وظل يضرب بها رأسه. والشقراء التي كانت تعمل لدى "ثيودوراكيس" ثملت للغاية هي الأخرى، وكانت حافية القدمين وشعرها طليق. في الجهة الأخرى كان الولد القادم من "لاريسا" يرمقها بنظرة كلها شوق. سقفت "أريادنيه"، أرملة رجل

الشرطة، بأيدي رضيعها الذي كان غافيًا على صدرها - فلتذكرني أن أحكي لك قصتها يومًا ما، فسوف يقف شعر رأسك واصلًا إلى السقف.

أتذكرهم جميعًا.

رقص "تاسوس" والسيجارة تحرق شفتيه، وكان محيرًا: عيناه مغمضتان، يكاد ألا يحرك رجليه، وكأنه كان يرقص على حقل ألغام، والنصف متر مكعب الذي يقف عليه هو النقطة الوحيدة النظيفة من الألغام.. كأنه إذا أصدر حركة خاطئة واحدة، فسوف يتفجر اللغم ويرمي بنا جميعًا في الهواء.

نهض "توميس" أخو "زاك"، وملأ كوبًا إلى حافته، وذهب وأعطاه إلى "تاسوس". شرب "تاسوس" الكوب دفعة واحدة، ثم وضعه مقلوبًا على الأرض. ثم قام بالدوران والانحناء، ولمس الكوب بإصبعه بلطف؛ فتحطم الكوب إلى ألف قطعة. لم ترَ شيئًا مثل هذا من قبل. فقط لمسه، هذا كل ما فعل، فتحول إلى حطام.

"سوف أبحث عن كهف

كهف

به حجر وطين

وهناك سأترك عظامي

عظامي

جسدي، وحياتي، وروحي"

ما المدة التي استغرقتها الأغنية؟ ثلاث دقائق؟ بدت وكأنها ثلاث ساعات. عندما انتهت، رأيت "لينا" تنهض، ثم تستدير وتنظر إلي وأنا أقف على جنب والمسدس في يدي. كانت تلبس تنورة جينز وحذاءً طويل الرقبة "بووت" لونه أحمر، وبدت من مكاني - وأنا في غاية الثمالة - وكأنها غارقة في الدماء إلى ركبتيها. حدقت في وكأنها لم تر ملامحي من قبل، وكأنها كانت تحاول جاهدة أن تتذكر من هذا الرجل الذي يقف هناك بمسدس في يده. أذكر أني ابتسمت لها، ثم أدخلت المسدس في فمي وادعيت أني أضغط الزناد، ثم أخرجته مجددًا وأطلقت النار على البرميل. أترى؟ بهذه البساطة. هل فعلت هذا من قبل؟ هل وضعت مسدسًا معمرًا في فمك، قاضمًا المعدن ومتذوقًا طعم الحديد المر؟ إذا فعلت ذلك فأنت تفهم هذا الشعور. أشياء شتى تدور في ذهنك في هذه اللحظة. أشياء شتى.

بعدها سارت "لينا" نحوي، ولكن "فالساموس" اقتطع طريقها وسحبها لترقص معه.

وقفت في مكاني أشاهدها وهي ترقص رقصة "الإبيروت"، ولا بد أني حسدتها بنظرتي - إذا كان من الممكن أن تحسد المرأة التي عشت معها عشرة سنين - لأن في نقطة ما رأيتها تترنح فجأة وتميل إلى الجنب، وكانت على وشك أن تقع. كُسر كعب حذائها. أصابني الذعر وقتها، قلت لنفسي: "عظيم! ربما كسرت رجلها وسنجري بها إلى المستشفى.. هذا إذا وجدنا طبيبًا ولم يرسلونا إلى ناكسوس أو سايروس.. وإذا وجدنا جهازًا للأشعة السينية، والضمادات والجبس، إلخ، لأنه كما يقال: لا يكفي أن تكون هناك مستشفى على الجزيرة.. ألسنا نحتاج أيضًا إلى أطباء وممرضات وأجهزة؟ وكيف ستخرج لتعمل في الحقل برجل مكسورة؟ ومن سيعتني بابننا؟". دار كل هذا في ذهني في لحظة. لحسن الحظ كُسر كعب "البووت" فحسب، وبالكاد اهتمت بما حدث. فقط أطاحت بفردتي الحذاء على جنب وأكملت الرقص حافية القدمين.

سحبت "لينا" ابننا من يده ورقصا معًا، وعلمته هي الحركات. يا ليتك رأيته، التقط الحركات في لمح البصر. ذكي مثل الثعلب هذا الولد، تمامًا مثل أمه. هنا انتابني خزي شديد.. كنت أفكر:"ألا تخجل من نفسك أيها الفاشل؟ ألا تخجل من كونك لا تفكر إلا في نفسك؟ متى أصبحت بهذه الوضاعة؟ يا له من خزي!" بعدها رأيت فردتي "البووت" ملقاتين على جانب ساحة الرقص وقلت لنفسي: "يا إلهي! انظر.. انظر إلى مدى وضاعتي! أنا حتى لا أقدر أن أشتري لها حذاءً جديدًا، وأنا أعرف مدى هوسها بأحذية البووت!" أذكر كيف اعتدت أن أشتري لها حذائين أو ثلاثة كل شتاء: حذاءً ذا رقبة طويلة، حذاءً ذا رقبة قصيرة، حذاءً بكعب، حذاءً بلا كعب. كانت أحذية غالية من الجلد الطبيعي، على عكس الأحذية الصينية الرخيصة. لا داعي لذكر أنواع الأحذية الأخرى، والملابس، والعطور، وكريمات البشرة. أضف إلى ذلك هاتفا محمولًا جديدًا اشتريته لها كل فترة قصيرة، ورحلات، وإجازات. حملت هذا المسدس بيدي وقلت لنفسي: "يا ليتني كنت قاذف لهب، فأسحب الزناد وأحول كل شيء إلى رماد." هكذا كنت أفكر طوال هذا الوقت: ما إذا كان باستطاعتي أن أكوم كل شيء فوق بعضه وأحرقه، أدمره كله. الملابس، والأحذية، وألعاب الأطفال.. كل شيء. أن أشاهد كل شيء وهو يتحول إلى رماد، كي لا أضطر إلى تذكر أي شيء ثانية. كي لا أرى كل هذه الأشياء وأتذكر كيف اعتدنا أن نكون، وما أصبحنا الآن. يمكن أن تسألني: "عظيم! فلنقل إنك أحرقت كل شيء، ماذا ستستفيد؟ ماذا ستفعل بعدها؟ أستتجول في الأرجاء حافيًا ومرتديًا جلد الماعز؟" لا أعرف. أنا لا أريد أن أتذكر فحسب. لا أريد أن أتذكر أي شيء.

في بعض الأحيان أفكر أنه بما أننا فقدنا وظائفنا وبيوتنا وحياتنا؛ لم لا نفقد ذاكرتنا بالمرة؟ لماذا؟ لماذا أخذوا كل شيء وتركوا ذاكرتنا؟ لماذا لم يأخذوها هي الأخرى؟

ليس الفقر هو ما يكسرك. ما يكسرك هو تذكر أنك لم تعتد أن تكون فقيرًا في الماضي. هذا هو ما يكسرك.

هنا انهار "ميناس". كان يرقص فحسب، ثم وقع فجأة كالكومة، وكأن أحدهم انتشل أطرافه من جسده. كلهم أسرعوا إليه، وقامت "يوتا" بحمله، وصاحت أنه على أحد أن يحضر الماء والخل ويدعك صدغيه. بدأ التوأم في البكاء والارتعاد كالكلاب المسمومة، فحملتهما النساء بعيدًا عن المنظر: رجل طوله متران ينهار بهذه البساطة، بوجه شاحب كالصفحة البيضاء، غارقًا في عرقه.. وكأن كل الدم في جسده تحول إلى عرق. حدث هذا الأمر أكثر من مرة، مثل ليلة ما كنا جميعًا بالميناء عند "ماريكا". فعلنا ما بوسعنا لنرجعه إلى وعيه ليلتها، وها نحن ذا في نفس الموقف.

لم يحب "ميناس" أخذ أقراص الدواء إطلاقًا، برغم أن لدينا كل ما يحتاج المرء من الأدوية هنا: "زاناكس"، "ليكسوتانيل"، "زولوفت"، "لادوز"، "إنديرال"، فلتختر ما شئت. في بعض الأحيان نمزح قائلين إننا عندما نفلس تمامًا، ستكون عملتنا هي أقراص الدواء؛ خمسة كيلو من البطاطس تساوي علبة "ليكسوتانيل"، وعشر بيضات تساوي علبتان "زاناكس".

لتفهم كل هذا يجب أن تكون حاضًرا للموقف. رجل طوله متران يقع كالكومة على الأرض.

مالت عليه "يوتا" وهي تبلل شعره بيد وتتحسس خديه بالأخرى. كان الأمر عجيبًا. كان شديد الغرابة. أرأيت من قبل السمك وهو يندفع خارج الماء بعد تفجيره بالديناميت؟ أرأيت كيف تلمع أعينه حين يطفو على السطح، كما لو لم يكن سمكًا حقيقيًا، كما لو لم يكن على قيد الحياة قبل هذا؟ هكذا كانت أعيننا ونحن نقف حول "يوتا" و"ميناس".. تلك هي الأعين التي كنا ننظر إليهما بها.

بعد ذلك، عندما أصبح "ميناس" في حالة أفضل، قمنا بحمله إلى السيارة، ورحل هو و"يوتا"؛ كنا سنوصل الأطفال إلى المنزل لاحقًا. جاءني "تاسوس" واسترد مسدسه، ثم سألني إذا كان بحوزتي شيء ندخنه. أجبته بالإيجاب، ثم ابتعدنا بعض الشيء وذهبنا إلى تلك السقيفة التي بُنيت بمقاعد فوق الجرف كي يجلس الناس تحتها ويشاهدوا الغروب. سحبت عدتي من غياري الداخلي ولففت لنا سيجارة حشيش، ثم أشعلتها ودخناها سويًا ونحن نقف هناك. كنا سارحين في البحر، والسماء، والجزر المظللة في الأفق: "ميلوس" و"كيمولوس"، و"بوليفوس". أتذكر كيف تلألأ البحر بأمواجه المبعثرة ، ولكني لم أعلق بشيء، لأني لم أرد أن أنحس اللحظة. لم يقل "تاسوس" أي شيء هو الآخر.

ولكن في لحظة ما، عندما اقتربنا من الرحيل، قال مجددًا أن الخير سيأتي من البحر. "سيأتي الخير من البحر".. لا أعلم لما التصقت تلك الجملة بذاكرته، ولكنه كان يقولها طوال الوقت. كل مرة كان يقولها بنفس الطريقة، وكأنه يغنيها، وإذا سألته عما يعني كان يقول إنها اقتباس من أغنية. لم يعرف أي منا ماهية هذه الأغنية، فلم يسمعها أحدنا من قبل.. ولكن المؤكد أنها التصقت بذاكرتنا نحن أيضًا؛ والآن نقولها طوال الوقت. كلما يحدث مكروه، كلما استقبلنا خبرًا سيئًا، نقول: "فلنصبر، سيأتي الخير من البحر. سيأتي الخير من البحر."

إنه شيء نحن "الغرباء" نعتاد قوله، وكأنه كلمة سر لا يعرفها سوانا.

قال "تاسوس":

- سيأتي الخير من البحر.

قلت له:

- فلتصمت يا رجل، ألا تعرف؟

- ماذا؟

- تعطل الخير وأخذوه ليتم تصليحه. سوف يأخذ وقتًا حتى ينهض مرة أخرى. على الأقل مئة سنة.. هذا ما قيل.

نظر إلي "تاسوس" دقيقة ثم بدأ في الضحك واضعًا يده على فمه، وكأن بإمكانه أن يخفي نفسه مني. بعدها أتذكر أنه فرد يديه أمامه ونظر إليهما وقال: - إذا كان المسيح بالفعل نجارًا، فمن المؤكد أن يديه كانتا مغطاتين بالعلامات والندبات مثل يدي. لك أن تتخيل كيف كان من الغريب أن يقوم بكل معجزاته ويداه هكذا. أن يشفي الأعمى والمشلول والأبرص، لامسًا إياهم بأصابع متورمة معوجة. أتمنى لو كان بإمكاني أن أفعل ذلك. حتى لو لم أكن مسيحًا. ولا حتى نجارًا.

بعدها، وإذ فجأة، قام باحتضاني. أتذكر أني كنت أفكر: "تاسوس أيها المسكين، أي مسيح ستكون بهذا الوجه وهذه الأسنان؟!" ولكني لم أقل شيئًا. فقط تركته يحضنني، ثم دفعته عني وقلت:

- لماذا تقوم بلمسي؟ لست أعمى ولا مشلول. لا شيء لك هنا لتشفيه.

- أعرف. إنه فقط الشراب. عندما أشرب لا أستطيع إمساك لساني.

ولكنه لم يرد أن يتركني. أمسك بذراعي وأمال رأسه على كتفي وأبى أن يدعني لشأني. نظرت إلى وجهه بجنب عيني: كان واضحًا في ضوء الشمس؛ لونه أحمر، منتفخًا، مغطى بالندبات.. أدرت وجهي ونظرت إلى البحر. قال:

- إذا كنت أنا المسيح، فستكون أنت يوحنا، أليس كذلك؟ ستكون تلميذي الحبيب، ستكون لي بمثابة يوحنا. أعرف أنك تحبني أكثر من الباقين. أنا أحبك أكثر منهم وأنت تحبني أكثر منهم أيضًا، أليس هذا صحيح؟ صحيح، صحيح بالفعل.

لا أتذكر ما حدث بعد ذلك. أعني.. نعم، أتذكر، ولكني لا أريد أن أحكى عنه. هذا يكفي.

كلا يا رجل، لا أريد أن أحكي.

كفى.

حقي أن أسكت، أليس كذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كثيرًا ما أفكر في هذا المفهوم: مفهوم الكراهية والخوف. أفكر فيهما وأتساءل أيهما يسبق الآخر. هل تولد الكراهية من الخوف، أم الخوف من الكراهية؟ أتساءل ما الذي سيحدث لنا، ماذا سيحضر لنا المستقبل.. إلى أين يقودنا كل هذا؟ أتساءل عن ماهية الدولة التي سنعيش فيها بالمستقبل، نحن ومن سيأتون من بعدنا.. أستكون دولة قائمة على الكراهية والخوف؟ دولة موجودة لكي تكره وتخاف؟

أريد أن أؤمن بشيء. أريد شيئًا أؤمن به، أتفهمني؟ شيئًا أو شخصًا. أريد أن أؤمن بمسيح جديد، حتى إذا كنت مدركًا أنه غير موجود، حتى إذا كنت أعرف أنه لن يهبط على الأرض، لن يولد، ولن يصلب، ولن يُبعث. أن تكون على دراية بعدم وجود الشيء ولكنك تؤمن به على أية حال؛ هذا في اعتقادي هو الخلاص الوحيد المتبقي لنا؛ لأنك إذا آمنت بشيء غير موجود، ربما - من يعلم؟ ربما - هذا الشيء الذي تؤمن به سيصبح حقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت حوالي الخامسة حين وصلوا، "إكاريوت" و"دراو" يجلسان في الأمام، والثلاثة الآخرون في الجزء الخلفي المكشوف للشاحنة - لم نرهم من قبل، ولم نرهم بعد ذلك أيضًا. في الحقيقة انتابتنا الدهشة.. ما الذي يفعله أتباع "زيليناكيس" الحمقى هنا في عيد الفصح؟

لم نتوقع أبدًا ما الذي كان على وشك الحدوث. ستسألني، إذا كنا توقعنا ما سيحدث، هل كان سيغير ذلك من الأمر شيء؟ ماذا كنا سنفعل؟ لا أعرف. كان من الممكن أن يختلف الأمر. ربما إذا كنا توقعنا من البداية ماذا كانوا يخططون لفعله، لسارت الأمور بشكل مختلف. ربما، لا أعرف.

مروا بنا ثم جلسوا تحت السقيفة. تصاعد الدخان فور جلوسهم واصلًا إلى حيث نقف، وكانوا في غاية الانتشاء، حتى أكثر منا. صوت السماعات في شاحنتهم كان صاخبًا لأقصى درجة ممكنة بأغانٍ مثل "فيدلز" و"داري داري"، وكل هذا الهراء الشعبي الذي يستمعون إليه في الجزيرة.

صاح "تاسوس":

- "داري داري داري داري

تتزاوج طيور النورس على الشاطيء"

كان يريد أن يتشاجر معهم؛ فمنعته "ماجدا". أزاحته على جنب وهزته من ذراعه، ولكنه لم يلق لها بالًا.

كان يردد:

- هذا الوغد، الجبان، المتنمر.. هو عار على البشرية. كيف يرسل أتباعه الوقحين في يوم عيد كهذا ليفسد متعتنا؟ لا يستطيع أن يتركنا لشأننا. سحقًا له ولعشيرته، سحقًا لهم جميعًا. هذا المخزي اللعين.

اجتمعنا حوله نحن أيضًا وحاولنا أن نهدئ من روعه. قلنا له:

- سحقًا لهذا، سوف يملوا ويرحلوا.

ما حدث باختصار، هو أننا استقرينا تحت الأشجار وتظاهرنا باللامبالاة. أخرجت النساء الحلوى وأشعلن المواقد ليعددن القهوة، وجئن طالبات ما تبقى من خمورنا، ولكننا أبينا.

خلال جلوسنا تحت الأشجار، ذكر أحدنا كيف يتألم من أجل هذه البلد. لا أتذكر من كان - كان جميعنا في غاية الثمالة - ولكنه قال أن هذه البلد تنبض بداخله مثل قلبه، كما لو كان لديه قلبين. قال آخر أنه أراد أن يستغرق في نوم عميق، ويستيقظ بعد سنين، بعد انتهاء كل ذلك. ثم قال آخر أنه ربما إذا حدث شيء سيء بالفعل، مثل زلزال كبير، ربما سيشفقون علينا ويدعونا نعيش.

إذا حدث زلزال كبير ومات الكثيرون، ربما سيقولون أخيرًا "انظروا إلى هؤلاء اليونانيين المساكين وللأشياء المريعة التي حلت بهم!" ربما سيشفقون علينا.. ربما سيطلقون سراحنا ويتركوننا لنعيش.. كنا نقول أشياءً على هذا النظير. كلامًا تقوله وأنت في الحضيض. كلام النساء. هذا حقيقي. عندما تتكلم وتتكلم وتتكلم، عاجلًا أم آجلًا سوف ينتهي بك الأمر وأنت تتحدث كالنساء.

التفتت إلى "تاسوس"، فوجدته ناظرًا إلى الجهة الأخرى، إلى "الفئران" الجالسين تحت السقيفة يصيحون ويضحكون كما لو كان المكان ملكهم. قال أحدنا - الفتى القادم من "لاريسا" الذي يعمل لدى "ثيودوراكيس" مع الشقراء:

- انظروا هناك!

نظرنا ووجدنا مثلثًا مقلوبًا في السماء. عندما اختبأت الشمس وراء السحب، نشأ من الضوء مثلث مقلوب ممتدٌ على مرمى البصر. علقنا جميعًا أننا لم نر شيئًا مثل هذا من قبل، فكانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها شعاع الشمس راسمًا مثلثًا مقلوبًا في السماء، وقال أحدنا أنها نذير شؤم. نفى "تاسوس" ذلك قائلًا:

- كلا، فلتنظروا مجددًا، هذا ليس مثلث.. هذه علامة النصر! سوف ننتصر!

ثم أشار "تاسوس" بعلامة النصر. أذكر أن "كوستيس" جرى إلى "تاسوس" وأمسك بإصبعيه وقال:

- يا أبي، إصبعاك يشبهان آذان الأرنب!

ثم اعتصر إصبعي "تاسوس" في قبضته الصغيرة وكأنه يحمل أرنبًا من أذنيه.. أتذكر عيني "تاسوس" وقتها - فأنا أتذكر كل شيء - وكيف كان يبتسم بشفتين مقفلتين كيلا تظهر أسنانه.. أتذكر كيف نظر إلى أصابع الصغير وهي تقبض إصبعيه، وكيف اختفت علامة النصر في قبضته.

والآن ستطلب مني البوح بأشياء لا يصح البوح بها أو الكلام فيها؛ وأنا لن أفعل ذلك. هذا كأنك تطلب مني أن أقل لك ما هو لون الكراهية، أو أن أصف لك وجه أحد يشعر بكره يلتهم أمعائه، مثل الفأر الذي يستخدمه الصينيون في التعذيب.. فهناك يربطون طستًا معدنيًا مقلوبًا حول بطنك، حابسين بداخله الفأر، ثم بعدها يضعون الفحم المشتعل فوق الطست، فيسخن الإناء بأكمله ويجن جنون الفأر، فيبدأ في التهام لحمك باحثًا عن مخرج.

الكراهية. الكره كالفأر في أمعائك.

بعد ذلك، عندما رجع "كوستيس" ليلعب بالكرة مع باقي الأولاد، قفز "تاسوس" من مكانه وأطلق النار بمسدسه في السماء، ناظرًا مباشرة إلى "الفئران" الجالسين تحت السقيفة. نهض الجثة المتعفنة المسمى بـ"إكاريوت" ببطء

وثقل، ثم توجه إلى الشاحنة وفتح الباب وسحب بندقيته وأطلق النار في السماء هو الآخر. سمعنا الخرطوش وهو يقع كحبات الأرز على أوراق الشجر فوق رؤوسنا. أسرعت "ماجدا" نحو "تاسوس" وأمسكت به وجعلته يجلس. فعل ما طلبت، ولكنه أبى أن يعطيها المسدس.

قال لها:

- حسنٌ. هذه آخر مرة. صدقيني، كل شيء على ما يرام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا سارحين في البحر. أذكر أننا حدقنا بالبحر في صمت، وأني تساءلت وأنا غارق في ثمالتي كيف بإمكان هذا الحشد من الناس أن يظل صامتًا طوال هذا الوقت. بعدها ألقى "تاسوس" كلمته المعتادة، متحدثًا عن الخير الذي سيأتي من البحر؛ لأنه ليست للبحر ذاكرة؛ فالماء لا يتذكر شيء. أذكر قوله إننا نحتاج أن نصبح نحن أيضًا كالماء، أن نمحي كل ما هو قديم، أن ننسي ما فات ونبدأ من جديد. قال إنه علينا أن ننسى أن ما جمعنا طوال هذه السنين هو المال - الحلال منه والمسروق على حد سواء -، وأن ما يجمعنا الآن هو كوننا لم نعد نمتلكه. قال إنه علينا أن ننسى كل ذلك ونجد لنا شيئًا جديدًا يوحدنا. أذكر أنه قال إن هذا هو أعظم أحلامه وأكبر همومه؛ أن يجد شيئًا يوحدنا غير المال.. لأنه كان متأكدًا أن أعظم انتصار للشر علينا هو أنه نجح في إقناعنا بما يريد، نجح في جعلنا نؤمن جميعًا أننا جئنا إلى هذه الدنيا لنعتني بأنفسنا فحسب. ينتصر الشر عندما نجتهد جميعًا في أن نصنع من أنفسنا شيئًا، بدلًا من أن نصنع شيئًا قيمًا خارج أنفسنا. الاجتهاد في أن نجعل لأنفسنا شأنًا عظيمًا؛ الاعتناء بالنفس وحدها، هو الهدية العظيمة التي يقدمها كل منا كل يوم، إلى أولئك الذين يريدون التحكم في مصيرنا. نحن نريد أن نصبح مثلهم لأنهم أقنعونا أننا كما يريدونا أن نكون؛ ضعفاء، ضئيلين، تابعين. نجحوا أن يجعلونا نرى أنفسنا خلال أعينهم بدلًا من أعيننا نحن. أقنعونا أن طريقهم هو الطريق الوحيد.

قال "تاسوس":

- ولكني ربما أكون على خطأ. لا أعرف. في بعض الأحيان أفقد إيماني أنا الآخر، هذا حقيقي. هناك لحظات أتساءل فيها عن كل هذا، وأفكر أنه حتى نبني هذه البلد مرة أخرى من الصفر، علينا أن نعيد بناء أنفسنا من الصفر نحن أيضًا. لحظات أفكر فيها أننا كي نجد شيئًا جديدًا يوحدنا، علينا أولًا أن نفترق. كيف كان يقولها هذا الرجل؟ "من وقت لآخر يجب أن نفقد عقولنا حتى نرجع لرشدنا." لهذا أتساءل إذا كان علينا أن نكف أولًا عن كوننا ما نحن عليه، حتى نصبح لاحقًا ما نريد أن نكون.. كي نخرج جميعًا من هنا، نهرب كلنا ونتشتت حول العالم. أن نصبح كما كان اليهود، أن نصبح يهود القرن الحادي

والعشرين، يهود الألفية الجديدة. ألم يذكر المسيح هذا أيضًا؟ أنك يجب أن تفقد روحك أولًا كي تنقذها؟ هذا هو أمرنا أيضًا. كي يتم إنقاذنا يجب أولًا أن نُفقد. كي ننقذ اليونان، بلدنا، علينا أولًا أن نفقدها.

كان هذا كلام "تاسوس"، أذكره، وأذكر كيف كان لون عينيه أشد حمرة مما سبق. رفع يده وأشار إلى السماء وقال:

- ولكني سأفتقد كل هذا، سأفتقده كثيرًا.. وأكثر من أي شيء، سأفتقد الضوء.. أين سنجد ضوءً مثل هذا؟ لا تمتلك الأماكن الأخرى ضوءً مثل هذا.

بعدها قفز أحدهم، ربما كان "سيس" أو "تريمو"، وصرخ في "تاسوس":

- ما كل هذا الهراء يا رجل؟ ما كل هذا الهراء الذي تخدعنا به عن اليهود والألفيات؟ من أنت؟ هل أنت ماسوني؟!

ثم نشب جدال كبير عندما تدخل الآخرون وقالوا إن كل هذا هو ذنب اليهود، وأنهم هم من هدموا اليونان. قال أحدهم أن كل هذه الفوضى مخطط يهودي، وأنهم لمدة ألفي عام كانوا يخافون اليونانيين ويمقتونهم، وبما أنهم لم يستطيعوا تدميرنا كل هذا الوقت بأي طريقة أخرى، هيأوا الأمر أخيرًا بحيث يصبح جميعنا مديونًا للبنوك؛ والتي يتولوا أمرها هم؛ لأن هذا هو الأمر الوحيد الذي يقدروا من خلاله أن يجعلونا مكتوفي الأيدي والأقدام وأن يستعبدوننا. قال آخر إنه قرأ على الإنترنت أن الوحيدون الذين يخافهم اليهود هم اليونانيون، فقديمًا في عهد الإسكندر الأكبر، نجحنا في استعبادهم لا بالمعارك والجيوش، بل باللغة والثقافة والفلسفة.. لم يغفروها لنا هؤلاء اللعينون، هؤلاء الرعاة، سارقي الحيوانات. ثم قال أحدهم أن المسيح كان عميلًا لدى الماسونيين هو الآخر، وأنهم اتبعوه فقط لأنهم أرادوا تدمير اليونان القديمة؛ وهو ما حدث فعلًا في النهاية. وقال آخر أن اليهود هم أيضًا من يمنعنا عن التنقيب عن البترول كل هذه السنين، وأننا كان بإمكاننا أن نصبح إحدى أغنى بلاد العالم، فرد أحدهم أن هذا لا ينطبق فقط على البترول، بل لدينا أيضًا أطنانًا من الذهب واليورانيوم. فقريب زوجته يعمل في شرطة الميناء، وقال إن قبل أيام جاءت مجموعة محترسة منهم، وبدأوا في تفحص المنطقة خارج "كامينيس"، وأن هؤلاء الضفادع البشرية.. غطسوا في قاع البحر بآلات خاصة، ووجدوا أنه مغطى بالذهب من البركان.. قالوا إنهم علماء يبحثون في البراكين، ولكن من يصدق ذلك؟ ربما هم أيضًا عملاء.

قال آخر إنهم كانوا لهذا السبب يحاولون جاهدين أن يدمرونا طوال السنين السابقة؛ هؤلاء الأجانب المخنثون وساستنا الخائنون اللعينون؛ لأن اليونان لديها البترول والذهب واليورانيوم، والأوزميوم الذي يباع الكيلو منه بثلاثة عشر مليون دولار في السوق الحرة. ولديها الزئبق الأحمر الذي يباع باثني عشرة مليونًا، والذي يستخدمونه كله لصنع الأسلحة النووية والوقود للرؤوس

الحربية والسفن الفضائية. إذا بحثت في الإنترنت لوجدت أن هناك كتبًا أثرية من الهند تقول إن اليونانيين هم أول من بنى السفن الفضائية، وإنهم استخدموا الزئبق الأحمر لصنع الوقود. يعرف بالطبع الماسونيون وعملائهم كل هذا.. لهذا قاموا بإخضاعنا كل هذه السنين، وجعلونا نتعارك مع بعضنا البعض، لأنهم إذا تركونا وشأننا، لأصبحت اليونان قوة خارقة بالتأكيد. كنا لنجعلهم جميعًا خاضعين لنا: اليهود، والألمان، والأمريكان.. الجميع.

تدخل اثنان أو ثلاثة من القادمين الجدد: "مانوس" الذي يعمل في الصوبات الزراعية وآخرون، وتحدثوا إلى "ستاثوس" الذي يعمل في حراسة المصحة العقلية في "ريجوس" قائلين:

- "ستاثيس"، يا رجل، لما لا تحضر شبكتك وسيارة الشرطة الخاصة بك وتقبض على هؤلاء؟ من الواضح أنهم يطلعون إلى ارتداء سترة المجانين. في الحقيقة، إذا كان بإمكان العادة السرية أن توفر وقوداً لسفن الفضاء، لوصل اليونانيون إلى حافة الكون وما بعدها.

بعدها حدث جدال كبير وتعارك الجميع مع بعضهم البعض. أتذكر أني استدرت وسألت "تاسوس" إذا كان بالفعل يعتقد أن الخير سيأتي من البحر. أذكر أني قلت له أني لا أكترث لمعنى هذه المقولة ولا أعرف أي خير بالتحديد سيأتي، ولا كيف. فقط طلبت منه أن يخبرني إذا ما كان يصدق هذا حقًا؛ أن يخبرني إذا ما كان علّي أن أصدق هذا أنا الآخر، إذا ما كان يستحق عناء الانتظار، إذا ما كان هناك أمل، إذا ما كان الانتظار أمرًا معقولًا. أذكر أن "تاسوس" رد قائلًا:

- بالتأكيد، انتظار الخير من البحر يستحق العناء، لأنه فقط حين تدرك أنه ما من منطق في انتظار إتيان الخير، عندها يصبح الانتظار أمرًا معقولًا. هذا ينطبق على كل شيء في الحياة، لأن الحياة لا يصبح لها معنى حتى تدرك أنها بلا معنى.

حينها استدرت ونظرت له، لأنه من الغريب أن يقول "تاسوس" هذا الكلام. كان أمر غريب أن أسمع هذا الكلام من بقّال؛ رجل كان يعمل في الحقل، رجل باع الخيار والطماطم في السوق. فجأة شعرت بالخجل لأني أدركت أنه أحرج من نظرتي له. عندها رفع كأسه وضحك قائلًا:

- إنه الخمر فحسب. عندما أشرب أقول كلامًا كبيرًا؛ أحكي شتى أنواع القصص الخرافية.

- أعرف. لا عليك، أنا مثلك.. وبما أنك ذكرت الأمر، فالحياة بأكملها هي قصة خرافية، قصة ترويها لنفسك. تلك هي الحياة. قصة خرافية من صنع عقلك. قصة عن مكان عيشك الآن ومكان عيشك في الماضي. قصة عن الأشياء التي تمر بها كل يوم. عن الناس المحيطة بك؛ الرجال، والنساء، والأطفال،

والأقارب، والأصدقاء، والجيران، والزملاء، والأعداء، والغرباء. قصة عن الأشياء التي تحدث والأشياء التي يجب أن تحدث والأشياء التي تتمنى أن تحدث. ثم يحدث أمر ما والقصة تنتهي، وهنا عليك أن تروي قصة أخرى؛ إذا أردت أن تمضي قدمًا. عليك أن تصنع قصة أخرى في هذا المكان الجديد الذي أرسلوك كي تعيش به، مكان جديد مع أناس جدد. إذا أردت أن تبقى، عليك أن تجتهد في رواية هذه القصة، أن تكافح لتُدخِل أماكن جديدة وأناس جدد في قصتك الخرافية. عليك خوض تلك المعركة، مكافحًا من أجل هذه القصة.

عليك أن تبني عالمًا جديدًا، عالمًا به كهوف وجداول مياه، وأشجار ... ، وكنائس قائمة على تلال، ومنحدرات صخرية، ومزارع عنب رملية، وقوارب تجديف، ومراسي، ومجاديف. كي تصنع هذا العالم الجديد، عليك أولًا أن تصنع من نفسك شخصًا جديدًا بأعين جديدة، وآذان جديدة، ولسان جديد، وأنف وأيادٍ جديدة، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن تستوعب مناظر وأصوات وروائح ونكهات جديدة.

يجب أن تفهم البحر والجو، وكيف يهب الريح في الشتاء والصيف. يجب ان تتعلم ألا تخاف من رياح "السيروكو" حين تقتلع الأشجار من جذورها وتتسبب في تهاوي الصخور، ولا من رائحة زهور الأورم البرية، ولا من صريخ طيور جلم الماء في الظلام، ولا من طقطقة السلالم الخشبية في ليالي أغسطس. عليك أن تتعلم كيفية انتزاع السمك الأزرق من الصنارة بدون جرح أصابعك، وكيفية قتل ثعبان البحر عن طريق صب الخل على رأسه. وهنا، بعد أن تنجح أخيرًا في بناء عالمك الجديد، سينتابك خوف من طروق أمر جديد يتسبب في نهاية هذا العالم أيضًا، فتجول بحثًا عن آخر، ثم آخر، ثم آخر.. ولكن إلى متى؟ كم من عالم تستطيع إقحامه في عالمك؟ كم من حياة تستطيع إدخالها في حياة واحدة؟ كم من حياة يحتاج شخص واحد ليمضي قدمًا؟

بعدها رأيت "لينا" تميل نحوي وتهزني من أكتافي.

- أنت تثرثر، أتسمعني؟ أنت تثرثر مجددًا. اجمع شتات نفسك، لقد جعلت منا أضحوكة. تبًا، ألا تكترث حتى لأمر ابنك؟ أعني، دعك مني، ولكن ماذا عن الولد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليت هذا اليوم لم ينتهي هكذا. حقًا أتمنى لو كان انتهى على نحو آخر، ولكن لكل منا قصة يعيشها، قصة تنتهي فقط كما هو مقدر لها، شئت أنت أم أبيت.

كان الصغار يلعبون كرة القدم، فركلها أحدهم لتسقط عند "المأوى". ركض "كوستيس" ليحضرها، فأوقف الرجل القادم من "إيكاريا" - هذا الجثة المتعفنة - الكرة بقدمه وأبى أن يعطيها له. قال شيئًا ما للولد وضحك، فضحك الجميع. وقف "كوستيس" مكانه ويداه مشتبكتان خلف ظهره، لاصقًا أصابعه ببعض،

رأسه منحنية وكأنه ينصت إلى صوت ما قادم من الأرض. ذهبت "ماجدا" وانتشلت الولد من ذراعه، فركل الرجل القادم من "أيكاريا" الكرة بعيدًا بعزم ما فيه. قالت "ماجدا" شيء ما فرد عليها الرجل وضحك جميع "الفئران". لم نكن قريبين كفاية لنسمع، ولم نعرف بعدها ماذا قيل، ولكن عندما استدارت "ماجدا" واتجهت نحونا، كان خديها مصبوغان باللون الأحمر، وكان فمها يرتجف وكأنها قامت بتقبيل ثعبان.

هنا انتفض "تاسوس" وأسرع إلى "المأوى"، ثم وقف أمام "الفئران" وصوب المسدس نحو رأس الرجل القادم من "إيكاريا".

أذكر هذا الموقف جيدًا، أذكره وكأنه حدث للتو. أذكر كل شيء، أذكر ما حدث وما لم يحدث وما كان من الواجب حدوثه.

نهض القادم من "إيكاريا" ببطء من مقعده، ورفع يديه ليفرد "الباندانا" التي كان يرتديها فوق رأسه، ثم مر من جنب "تاسوس"، والذي ظل موجهًا المسدس نحوه، متتبعًا كل خطوة يمشيها، حتى فتح باب الشاحنة وأخرج بندقيته، ثم عبأها وذهب ليقف أمام "تاسوس"، حاملًا البندقية بيد واحدة وكأنها بندقية لعبة، مصوبًا نحو رأس "تاسوس".

كل منهما كان يصوب نحو رأس الآخر.

كم من الوقت مضى؟

كلاهما يصوب نحو رأس الآخر.

أمسكنا بـ"ماجدا" كي لا تجري نحوه. نحن الرجال أمسكنا بها، في حين جمعت النساء الأطفال على جنب وبدأن في البكاء. انتفضت قلوبنا في صدورنا وكأنها سمكة انتُزعت من الصنارة وأُلقت مجددًا نحو البحر. ظننا، نحن الرجال، أن "تاسوس" سيكون أول من يضغط الزناد.

نعم، قلت لك أني سأحكي كل شيء.

كنا ننتظر هذا جميعًا، أردنا هذا أن يحدث. أردنا أن نرى "تاسوس" وهو يضغط الزناد، أردنا أن نرى رأس القادم من "إيكاريا" ينفجر.. يفرقع كالبطيخة. بعدها كنا لنسرع نحوه جميعًا، رجال ونساء وأطفال، وكنا لنسحقه تحت أقدامنا ونمزقه إربًا. هذا ما كنا نتمنى، هذا ما تطلعت قلوبنا لتراه: أن يتخلص العالم من "فأر" منهم. أن يتخلص العالم من "فأر" سمين منهم.

لم نكترث لما كان سيحدث بعد ذلك.

كلاهما كان يصوب نحو رأس الآخر.

كم من الوقت مضى؟

كلاهما يصوب نحو رأس الآخر.

ثم أخفض "تاسوس" ذراعه.

قال القادم من "إيكاريا" بصوت هادئ ضجر ينم عن عدم الاكتراث:

- ضع هذا الشيء في جيبك، وإلا أنت تعلم أين سأضعه.

أطاعه "تاسوس" ووضع المسدس في جيبه الخلفي. عندها أخفض القادم من "إيكاريا" بندقيته، ثم مضى نحوه ولطمه على وجهه. لم تكن لكمة، كانت لطمة. لطم "تاسوس" كما لو كان أحد العاهرات في حانة التعرِّي التي يذهب إليها. لم تكن اللطمة محملة بكره أو غضب، بل كان شعور بالشفقة، وكأنه كان يسدي له معروفًا، كما لو كان هذا لمصلحته. استكمل حديثه قائلًا:

- اخرج من هنا أيها المعتوه. التقط ما تبقى لك من رجولة واخرج.

للحظة انتفضت قلوبنا في صدورنا مرة أخرى، لأننا ظننا أن "تاسوس" بالتأكيد سوف يسحب المسدس تارة أخرى ويضغط الزناد هذه المرة. ولكنه لم يفعلها. لم يفعل أي شيء، لم يتفوه حتى بكلمة. استدار فحسب واتجه نحونا برأس منحنٍ، ثم استدار مرة أخرى واتجه نحو فم الكهف. وقف هناك عند مدخل الكهفً.. رجل في حجم النقطة، أمام كل هذا السواد. وقف ناظرًا إلينا بعينين في غاية الاحمرار. وجهه كان محمرًا هو الآخر. ندباته بدت وكأنها تورمت، فأصبح وجهه كقناع حمله أحدهم أمام النار حتى بدأ في الذوبان.

سحب "تاسوس" المسدس من جيبه وقال شيئًا لم يسمعه أحد، ثم اختفى داخل الكهف في لمح البصر.

استدار القادم من "إيكاريا" ونظر إلينا، ثم ضرب بقدمه على الأرض وكأنه يحاول أن يهش مجموعة من الكلاب. صاح قائلًا:

- تراجعوا، أيها الساقطين الأجانب.

لم نستوعب ما قال. لم يحرك أحدنا طرفًا. كرر صائحًا:

- تراجعوا!! سوف أبتلع أحلامكم! تبًا، قلت تراجعوا!!

صفر للآخرين، فدخلوا جميعهم في الشاحنة ورحلوا.

تركتنا "ماجدا" وركضت تجاه الكهف تصرخ، ولكننا أمسكنا بها قبل أن تدخل هي الأخرى. كانت تضرب نفسها باكية، وتنده اسمه صارخة. التففن النساء حولها وحاولن أن يهدئن من روعها. قلن لها:

- اهدأي. هو رجل سكران يشعر بالعار، كرامته جُرحت، ولكنه سيتخطى هذا. لا تنسي الأطفال. لا تتهوري وتفعلي شيئًا جنوني. سوف يخرج حين يفوق وكل

شيء سيكون على ما يرام. اهدأي، اسمعي، لا تنسي الأطفال. كانت لحظة سيئة فحسب، سوف تمضي.

مضي الوقت، والظلام حل، ورحل معظم الحشد مع زوجاتهم وأطفالهم. ظل اثنان أو ثلاثة منا مع "ماجدا" منتظرين. تجرأنا بين الحين والآخر أن ندخل في الكهف بكشافاتنا نندہ على "تاسوس"، ولكن دون جدوى. وقتها كانت "ماجدا" في غاية الإرهاق، منكمشة في ركن تحدث نفسها.

- سوف يأتي الخير من البحر.

ظلت تردد هذه الجملة مرارًا وتكرارًا كما لو كانت أغنية.. أو تلاوة عزاء، من يعرف؟

أشعلنا نارًا ولكن لم يشعر أحد بالدفء. كان الهواء شديد البرودة وانتهى مفعول الخمر، فأصبحنا نرتجف. لم نقدر حتى على الكلام. ماذا كنا سنقول؟ حاولنا أن نقول شيئًا لنواسيها، لكنها لم ترد أن تسمع أي شيء. كانت قد فقدت الأمل في رؤيته مجددًا. قالت لنا:

- عرفت من عينيه. منذ وقت طويل وأنا أرى الموت بعينيه.

هل سبق لك الجلوس حول شعلة نار بالليل مع أناس صامتين؟ سوف يجن جنونك. أعني ما أقول. حين ترى وميض اللهب والظلال وهي تحول أوجه من حولك إلى أقنعة غريبة الشكل، حين تسمع أزيز النار وطقطقة الخشب وصرير الهواء من بين أغصان الأشجار، ستبدأ أيضًا في رؤية وسماع أشياء أخرى، أشياء حية تتحرك في الظلمة المحيطة بك؛ وستشعر بالخوف.. خوف ينتمي إلى زمن بعيد قد مضى.. زمن الكهوف. سيتسلل هذا الخوف على ظهرك ويسيطر عليك، ليقبض عليك من أكتافك. حينها ستتساءل عما إذا كانت النار هي التي أوهمتك بوجود هذه الكائنات الليلية، وإذا ما كان من الأفضل أن تخمد النار وتصبح أنت والظلام واحد، فتخدع تلك الكائنات وتقنعهم أنكم تمامًا مثلهم: أنكم أيضًا كائنات ليلية. فجأة ستجد نفسك عالق بين خوفين، خوف وُلد من النار وآخر وُلد من الظلمة. ستجد أنك لا تعرف ماذا تفعل، ولا أي الخوفين أسوأ، ولا أيهما تختار.

بعدها سيتملكك خوف آخر، خوف أكبر، عندما تكتشف كم هو أمر مرعب.. كم هو من المرعب أنك بدأت تتصرف لا كإنسان، بل كشيء آخر. من المرعب عدم تمكن المرء أبدًا من معرفة ما إذا كان النور أسوأ من الظلام، أو ما إذا كان الخوف الذي يولد من النار أسوأ من ذلك الذي يولد من الظلمة. وأكثر ما يخيفك على الإطلاق هو أنك لا تعرف ماهية هذا الشيء الذي بدأت في التحول إليه.

ماذا بعد؟ ماذا يصبح الإنسان عندما يكف عن التصرف كإنسان؟ ماذا يوجد على الجانب الآخر من الإنسانية؟

عندها ستفكر أنه في نهاية الأمر هذا ما كان يحاول "تاسوس" فعله؛ هذا الأحمق المسكين. لعله لم يكن على دراية بذلك، ولكنه كان يجتهد في أن يبق إنسانًا.. أن يبق بشرًا فحسب. لا أن يصبح شخصًا طيبًا، ولا لائقًا، ولا شخصًا أفضل.. بل أن يبق شخصًا فحسب؛ بكل بساطة. كان يساعدنا أن نظل أشخاصًا نحن أيضًا، حتى لا نتحول إلى هذا الشيء الآخر الذي يتساءل ما إذا كان النور أسوأ من الظلام.

لم يختف "تاسوس" بسبب "زيليناكيس"، ولا هذا الوغد القادم من "إيكاريا"، ولا الطماطم والبصل ولا "الإيمازاليل" ولا "الثيابندازول"، ولا سمك "البريم" السنغالي، ولا أجنحة فندق "نكتاريس"، ولا حتى العدل والتضامن.. بل اختفى من أجل النور. النور. لأنه أراد أن يوقفنا قبل أن نتحول إلى هذا الشيء الآخر الذي يتساءل عما إذا كان النور أسوأ من الظلام.

سوف تقول لي أني أحكي قصصًا خرافية، كلام كبير، كلام سكارى.. أنت على الأرجح محق. سوف تقول لي "اهدأ، دعك من هذا، لأنك على هذا المنوال سوف تخبرنا أن تاسوس، بائع الخضار الذي باع الخيار والطماطم في السوق، هو فيلسوف ما، وبالإضافة إلى ذلك ثوري! النور والظلام.. يا له من هراء. ماذا تعرفون أنتم عن هذا الأمر في أية حال؟ ما أنتم إلا مزارعون، حراس أمن، بائعي بلاستيك في المخازن ... ماذا تعرفون أنتم عن كل هذا؟ أنتم غرباء هنا. التزموا بالتحدث بلغتكم الأجنبية، والتفكير بطريقتكم الأجنبية. اهتموا بالمأكل والعمل والنوم، لعل صيدكم للسمك الطازج من وقت لآخر يرضيكم. هذا كل ما تفلحون به. أي شيء فوق ذلك ينتمي فقط إلى من هم فوقكم." هذا ما ستقوله لي، وستكون على حق. لكنك لا تعرف شعور أن تعيش هنا. إذا عرفت، إذا عشت أنت أيضًا على هذه الجزيرة، إذا كنت دخيلًا هنا، لكنت رأيت الأشياء على نحو مختلف.

نحن هنا كالمكفوفين الذين لم يولدوا مكفوفين. نحن كأناس لم يعودوا يرون الشمس، ولكنهم يعرفون أنها موجودة، ويتذكرونها جيدًا، فرويدًا رويدًا بدأوا أن يكرهوها لمجرد أنها موجودة برغم عدم قدرتهم على رؤيتها.. وبدأوا أيضًا في كره أولئك الذين لا يزالوا يرونها.

"تاسوس" هو من كان يحاول أن يمنعنا، نحن الأكفاء، من كره الشمس وكره من لا يزال يستطيع رؤيتها. برغم أننا لم نصدق الأشياء التي كان يقولها.. أردنا أن نسمعه يتحدث عنها. أردنا أن يكون من بيننا شخص يؤمن أننا أفضل مما أصبحنا عليه، أن كل شيء لم يمت بداخلنا، أننا لا زلنا نكِنُّ بداخلنا أشياء يمكن أن تُحَب، حتى إذا كنا لا نعرف ما هي تلك الأشياء وكيف ستصبح لاحقًا.. تمامًا مثل حب الأم لابنها حتى قبل أن يولد.

إذا عشت هنا، إذا كنت أجنبيًا، دخيلًا، لكنت رأيت الأشياء على نحو آخر. ربما.. لا أعرف.

في الصباح التالي توجه حشد كامل إلى "المأوى": رجال شرطة، ورجال مطاف، ومتطوعون معهم خوذاتهم وحبالهم. تعمقوا داخل الكهف بحوالي ثلاثمائة متر، حتى وصلوا إلى منحدر وتوقفوا، لأن التقدم أي خطوة أخرى كان خطرًا؛ بل مميتًا. دخلوا الكهف تارة أخري في اليوم التالي، والتالي، صائحين يبحثون عنه في كل الأنحاء بكشافاتهم، ولكن دون جدوى. في النهاية اتفقوا على أن "تاسوس" وقع من فوق الحافة، فجمعوا معداتهم ورحلوا.. بالرغم من أنه لم يستطع أحد أن يفسر كيف تمكن "تاسوس" من الخوض داخل الكهف بهذا العمق وهو يمشي في الظلام بلا كشاف ولا أي شيء.

لم تقام له جنازة، بالطبع. قبيل إجازة الصيف، أخذت "ماجدا" الأطفال ورجعت إلى أثينا. في هذه الأثناء سمعت الجزيرة بأكملها عما حدث مع القادم من "إيكاريا"، ولكن لم يفعل أحدهم أي شيء.. من كان ليتجرأ أن يتكلم؟ أعني، إذا كانت زوجة "تاسوس" نفسها لم تتفوه بكلمة، ما الذي يدعي الآخرين للتدخل؟

بعد مرور شهر اختفى "إيلفيس"، وبعده ابن "لازاروس". قال الجميع أن الأشياء السيئة تأتي في مجموعات ثلاثية، وأن الأمر انتهى على ذلك. شيئًا فشيئًا نُسي الموضوع بأكمله.

لم يتبقى شيء أخبرك به. لقد انتهى الأمر. النهاية. إذا أردت تفاصيلًا أكثر، اسأل أحدًا يحب أن يتحدث عن الدماء والرؤوس المتفجرة وما إلى ذلك.. عن الدموع والموسيقى الجنائزية.. وعن أحلام رجال ماتوا.. مع العلم أنه سيقول لك نفس الشيء: كيف تقنا لرؤية "تاسوس" وهو يسحب الزناد، وهو يفجر رأس القادم من "إيكاريوت".. بدلًا من رأسه هو. كيف توقعناه أن يعطينا نهاية لائقة، نهاية بطولية، نهاية رجولية.

إنه لا يشكل فرقًا ما إذا كان فجر رأسه أو سقط في الهاوية أو أكله المستذئبون في الكهف أو ما دون ذلك. لا يشكل فرقًا على الإطلاق. لا فرق، لا فرق على الإطلاق.

الخيانة هي الخيانة.

منذ ذلك الوقت ونحن ننتظر.

ما زلنا نذهب إلى المأوى بين الحين والآخر لنقوم بما اعتدنا أن نقوم به. ولكن مؤخرًا، عندما يحل الليل، نجلس حول النار ونتأمل البحر كأننا في انتظار حدوث أمر ما. في بعض الأحيان ينتفض أحدهم وهو سكران ويبدأ في النحيب سائلًا عما الذي دفع هذا الرجل إلى تلك النهاية المجحفة، ولمَ تركناه يجري

إلى داخل الكهف ولم يجري ورائه أحد.. ولماذا لم يدخل أحدنا لينتشله إلى الخارج.. وعن كيف من المؤكد أنه كان خائفًا وهو يمشي وحده في الظلام.. وكيف من المؤكد أنه انتظرنا، في حال شعر بالخوف في لحظة ما وحاول أن يجد طريقة يرجع بها.. انتظرنا لندخل وننقذه. لعله صرخ نادهًا علينا حتى فقد الأمل أخيرًا. لماذا فعلنا ذلك؟ أي نوع من البشر نحن؟ أي نوع من البشر أصبحنا؟ كيف قست قلوبنا هكذا؟.. حين يبدأ أحدنا في التحدث هكذا وهو سكران، ننقض عليه جميعًا ونأمره بالسكوت. لا نريد أن نتحدث عن الماضي. لا نريد أن ننظر إلى الخلف، بل إلى الأمام. لا نريد أن ننظر تجاه الكهف، بل تجاه البحر؛ البحر الواسع/ المفتوح، بدون كلام كثير، بدون دموع ونحيب، بدون ذكريات.

نجلس هناك صامتين حول النار، ناظرين إلى البحر وكأننا ننتظر بطلًا ما أن يخرج لنا منه يومًا ما.. لا بطل حرب، بل بطل ما بعد الحرب. بطلًا حيًا ليس ميتًا.. بطلًا لا يرتجف فيه الموت، بل تنبض فيه الحياة.

بطلًا لا للأموات، بل لأولئك الذين يواصلون العيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما تنظر إلى جزيرتنا من الأعلى، تجد أنها تشبه زوج من الأصفاد أحدها يكبر الآخر، وكأنها مصنوعة لشخص ذو ذراع ضامر. صفد صغير وصفد كبير، جزيرة خارجية وجزيرة داخلية، جزء علوي وجزء سفلي. جزيرتنا جزيرتان، صفدان تربطهما سلسلة نطلق عليها اسم "الأبواب"، وهي قطعة أرض طويلة ضيقة تمتد لاثني عشرة كيلومترات. كلتا الجزيرتين لها بحيرة بالمنتصف: "أبسيثيا" أو "وورم وود" في "الصفد الكبير"، و"ساكند كومينج" في الصفد الصغير. يقف على "أبسيثيا" أعلى جبل، "بوليموث"، "جبل الحرب"، والذي من قمته ترى إحدى عشرة جزيرة: "أيوس"، و"سيكينوس"، و"سانتوريني"، و"ميلوس"، و"كيمولوس"، و"بوليفوس"، و"سيفنوس"، و"سيروس"، و"باروس"، و"أنتيباروس"، و"ناكسوس".

في أفضل الأيام، عندما تزيح الرياح الصقيع من الأفق، يمكنك حتى أن ترى أبعد من ذلك، عند "أمورجوس"، و"أستيباليا"، وعند الجنوب على بعد ثمانين ميلًا، حيث ترى ثلوج جبل "سيلوريتيس".

يقول أبي أنه سيأتي يوم عن قريب تنقسم فيه جزيرتنا من المنتصف، حيث تقع "الأبواب" الآن، وتصبح جزيرتان. دائمًا ما يقول أشياءً كهذه، منذ أصابته النوبة القلبية. يقول إنها مسألة وقت.

- أهي صدفة أننا نشهد الكثير من الزلازل مؤخرًا؟ أو أن البحر بدأت درجة حرارته في الارتفاع عند "كامينيس"؟ وماذا عما حدث عام 1956؟ عندما تسبب الزلزال في تهاوي كل شيء حتى لم تبق صخرة سليمة.

يقول إن نصف البلدة انهارت وقتها، وأن البحر ارتفع ثلاثمائة مترًا فوق الشاطئ وأن "ميسكينيا" انفصلت عن الأرض الجزيرة الرئيسية وأصبحت جزيرية صخرية صغيرة. يرى أن كل هذا علامات. ما يحدث الآن هو تمامًا ما حدث في الماضي. الفرق الوحيد هو أن الآن الوضع أسوأ. الآن النهاية قادمة. النهاية الحقيقية الأخيرة.

أبي. دائمًا ما كانت تصرفاته غريبة بعض الشيء، ولكن منذ النوبة القلبية خرج عن السيطرة تمامًا. إنه في الخمسين وحسب، ولكنه يتحدث وكأنه امرأة عجوز توشك على الموت وترى ملائكة وأشياء أخرى في السماء. عندما أجلس لأطعمه القليل من الحساء، بناء على رغبته في الأكل، يبدأ في التحدث عن أشياء تجعل الشعر خلف رقبتي يقف من الخوف. زلازل، وبراكين، وتسونامي. لا أعترض أبدًا، لأن أبسط شيء أقوله يفقده صوابه، فيغطي نفسه إلى رأسه بالملاءة وأظل أترجاه لساعات كي يخرج من تحتها.

بعدها يبدأ في حديث جنوني آخر، مثلما فعل قبل أيام بعدما أطعمته، فبدأ يأمرني بتوبيخ أن أقوم بهش الأوز من الغرفة. قال لي:

- اطردي هذا الأوز من هنا! هشي هذه الأشياء القذرة من هنا، ألا تكترثين لأمر أبيك على الإطلاق؟ من أنتِ؟ ابنة أم طاغية؟

ماذا كنت لأفعل؟ بدأت في التلويح بيدي في الهواء وكأني أقوم بهش الأوز. لم يخدعني أبي هكذا من قبل، أخذت على حين غرة.. استغرقت وقتًا حتى استوعبت أنه كان يتكلم عن الذباب الذي يحوم حول صحن الحساء.

يقول أبي أن كلها علامات. الأوز، والزلازل، ودرجة حرارة البحر التي ترتفع بسبب البركان. ليس هذا كل شيء. عندما ترى الناس يختفون داخل الكهوف، والسمك ينتفض على أراض جافة، والمشلولون ينهضون من على كراسيهم المتحركة؛ عندما ترى تلك الأشياء، تعلم أن النهاية قريبة. النهاية الحقيقية.. النهاية المطلقة.. النهاية الجميلة.

هذا ما يقوله أبي، طوال اليوم، كل يوم. وفي الليل، حين يتعب، يأخذ يدي ويضعها على خده جنب شفتيه المعوجة المتورمة التي تشبه "أوميكرون" صغير (حرف o) انقسم من المنتصف وأصبح "أوميجا" (حرف w).

يطلب أبي مني غامضًا عينيه ألا أتركه، أن أبقى معه طوال الليل.

- ابقي معي، حتى أشعر بدفئك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

اقتلوا الألماني

الموكب في طريقه، الأجراس تدق. سيمر الموكب عن قريب، والرجل العجوز ما زال محبوسًا في الغرفة مع الفتاة.

دفع "كرونيس" كرسيه المتحرك إلى الشباك، محاولًا أن يفهم ما الذي يحدث. لا شيء. الأضواء مطفأة، والستائر منسدلة. هذا اليوم أحضر ابنته إلى الأعلى في وقت مبكر بغير العادة، في حوالي السادسة أو الخامسة والنصف. هذا يعني أن أمر ما قد طرأ.

دفع نفسه بالكرسي إلى الخلف، ثم استدار قليلًا إلى اليمين، ثم قليلًا إلى اليسار، ثم إلى الأمام، ثم إلى اليمين مرة أخرى.. ثم دفع نفسه راجعًا إلى المكتب. تسلق العقرب على أعلى صخرة في منتصف الوعاء، وثبت في مكانه منتظرًا. كسر "كرونيس" قطعة من الخبز وأغمسها في الخمر، ثم شكلها بيده حتى أصبحت كالشطيرة الصغيرة، رقيقة ومستديرة كالعملة المعدنية. رفع الصخرة السميكة المستوية من على عنق الوعاء الطويل الضيق كصندوق اقتراع صغير، وأسقط قطعة الخبز من الفتحة بالأعلى. لم يكن العقرب على ما يرام مؤخرًا. لم يخرج إلا للماء، بدى وكأنه بلا شهية على الإطلاق. حتى العناكب لم يلمسها، وهي وجبته المفضلة. شعر "كرونيس" بالقلق، مع علمه بالطبع أن للعقرب القدرة على البقاء أسابيع أو حتى شهور بلا طعام. كان يجرب أشياءً مختلفة، حتى إنه في مرة جرب أن يلقى له فراشات العث في الوعاء، مرة أخرى سحلية كاملة، والتي أفقدته صوابه وهو يصطادها بشبكة عند أنقاض بيت "دراكومانوليس". في اليوم السابق أو الأسبق، من باب الفضول، رمى قطعة خبز مغموسة في الخمر، فسريعًا ما خرج العقرب من تحت البلاطة المكسورة واقترب ببطء من قطعة الخبز. التف حولها مرة، ثم قلَّبها بضعة مرات، ثم فجأة قفز إلى الأمام والتقط قطعة الخبز بكلابته، وبدأ في طعن الخبز بذيله بطريقة جنونية وهو يلتف في دائرة، يطعن مرارًا وتكرارًا كما لو كانت قطعة الخبز كائنًا حيًا يقاوم السم. بعدما تحول الخبز إلى فتات، توجه العقرب إلى حائط الوعاء وبدأ في النقر على الزجاج، وكأنه يطلب المزيد. "طك طك طك. طك طك طك. طك طك طك".

وضع "كرونيس" الصخرة على مكانها فوق الفتحة، ودفع كرسيه المتحرك إلى الخلف للحصول على رؤية أفضل. قبض يديه، ووضع واحدة على الأخرى، ثم أراح ذقنه على يديه.

انتظر.

لم يتحرك العقرب.

سأله الرجل الذي جاء ليصلح الإنترنت:

- لم تملك عقربًا؟

- يساعدني على التذكر.

أحدث الرجل بسبسة وكأنه ينده على قطة، ونقر الزجاج بإصبعه، منحنيًا تجاه الوعاء.

- أله اسم؟

- "كيرميت". أحيانًا أطلق عليه "جريجور سامسا". حسب مزاجي.

نظر الرجل إلى "كرونيس" ثم نظر مجددًا للعقرب.

- "كيرميت"، هاه؟

- أجل. وأطلق على الكناري اسم "سيلفستر"، والثعبان "إيف".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدَّق "كرونيس" في العقرب وشعر أنه يحدق به هو الآخر بعينيه الاثني عشر. تساءل ما شعور أن ترى العالم باثني عشرة عينًا. نظر إلى جسد العقرب الأسمر، وأرجله الثمانية التي امتزجت بالصخرة، وزيله المرفوع كالقوس، وإبرته العالقة في النهاية ...

انتظر.

لم يتحرك العقرب.

"دان دان دان". دقت أجراس الكنيسة بصوت عالي، وكأنه انتقام، كأنه مطرقة ليست غايتها دق المسمار، بل معاقبته.

"دان دان دان".

سيأتي الموكب عن قريب، ولا زال الرجل المسن محبوسًا في غرفته مع الفتاة. يحدث هذا كل مساء. وكل ليلة عندما تخرج الفتاة وتنزل السلم ببطء، متكئة على الدرابزين الصدئ، تبدو أرفع وأضعف من ذي قبل، وبشرتها شاحبة أكثر، وشعرها أقل شُقرة، وكأن وجهها يمتص الصفار من شعرها. يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، تنزل السلم ببطء أكثر، ورأسها تنحني أكثر، وركبها تصبح أضعف، وكأن هناك كائن مريع يختبئ في هذه الغرفة؛ تنين يمتص دماء الفتاة، يمتص قوتها يومًا بعد يوم وليلة بعد ليلة.

عرف "كرونيس" أن عليه أن يفعل شيًئًا، لابد من وجود شيء يمنع الفتاة من تسلق هذه السلالم، أن يوقف هذا الرجل الغريب من حبسها في الغرفة. وبرغم من أنه كان يعلم ما عليه أن يفعل، فهو لم يكن متأكدًا من وجوب فعله

ذلك، لأن الفضيلة ليست معتقدًا أو ديانة، ولا الحب.. لو كان الأمر كذلك، لكان أولئك الذين ينتمون إلى اليمين المسيحي واليسار المسيحي هم أفضل وأكرم ناس في العالم. يمكنك أن ترى بنفسك حقيقة معظمهم: أنذال تلمع عينيهم بالنفاق. ويل لهؤلاء الذين يشعرون بالحب والطيبة بناءً على التزام عقائدي. ويل للذين يلجئون إلى المسيح والدين؛ فالدين في الحقيقة معتقد. وبما أن مبدأ مخالفة السلطة يعتمد على إنكار السلطة، هذا الإنكار في حد ذاته لا يمكن أن ننكره، حتى باسم الأخلاق والحب؛ لأن حينها يجب أن نعترف أن هذا المبدأ يعتمد على استبداد النسبية. في هذه الحالة يصبح الشخص المخالف للسلطة لا خصمًا للاستبداد، بل عبدًا لاستبدادين: الأول هو السطلة، والثاني هو النسبية. بناء على ذلك، أي قرار يأخذه "كرونيس"، مع العلم أنه ليس من المضمون أن تترتب عليه نتيجة إيجابية، سوف ينتج بالتأكيد عن شرور عدة.

بالإضافة إلى ذلك، إذا حقًا أردنا أن نقول الحقيقة، فالتدخل بأمر الغير هو أيضًا نوع من فرض السلطة والنفوذ. ولا تحاول أن تقنعني ما إذا كان الغرض من هذا التدخل نبيل أم سيء. لا تجرؤ على خداعي، لأن هذا هو أسوأ أنواع "المانوية": السلطة النبيلة والسلطة السيئة. ألست على حق؟

شيء من هذا القبيل على أية حال.

ثم عندما ترفض تقبل النسبية (أن لا شيء أسود أو أبيض بالكلية)، ولا "المانوية" (أن كل شيء إما أبيض أو أسود)، يفترضوا أنك لست على ما يرام. ربما تحتاج أن يتم الكشف عليك؟ ربما فقدت صوابك؟ ربما كنت لست متأكدًا ما إذا كان ناتج اثنان واثنان أربعة؟

أعاد الرجل الذي جاء ليصلح الانترنت توصيل الفيشات كلها، ثم نهض وبدأ في جمع معداته. نظر مرة أخرى بجنب عينه على ساقي "كرونيس".

- أكانت تلك حادثة سيارة؟

- بل هزاز.

- المعذرة؟

- وضعت قنبلة في متجر أدوات جنسية، ثم انزلقت وأنا أخرج منه، فحطمت ساقيّ.

انتظر "كرونيس".

انتظر محدقًا في العقرب وكأنه هو الآخر عقرب ذو ثماني، أو عشر، أو اثني عشرة عينًا.

انتظر.

ثم بحركة مذهلة، قفز العقرب من قمة الصخرة كظل أسمر، وهبط على قطعة الخبز، ورفع نصف جسمه في الهواء، ماسكًا قطعة الخبز بين كلاباته، ثم طعن الخبز بإبرته السوداء.

رفع "كرونيس" رأسه وأخرج زفيرًا. شعر بجسده يرتخي ويستريح؛ فقد مضى وقت طويل منذ شعر بنصفه الآخر من الخصر للأسفل. مع العلم أنه أحيانًا يشعر به. يشعر به ككتلة من الألم، كتلة هائلة من الألم الخفي، ألمٌ تراه ولا تراه، ألمٌ أسوأ من أي ألم، ألم اللحم الذي لم يصبح لحمًا، والساقين اللذين لم يصبحا ساقين، ألم حجمه هائل.. يذكرني بالإله، فبرغم وجوده لا نراه. ألم يوجع وكأنه أَلَمان، لأنه ولد من جسد مرئي ومعدوم الوجود في نفس الوقت.. أو بالأحرى نصف جسد.

رفع "كرونيس" رأسه ونظر خارج الشباك.

"دان دان دان". كان صوت الأجراس يدق في صدغيه.

"دان دان دان".

نظر إلى الوعاء مجددًا ووجد أن العقرب قد بدأ بالفعل في عجن قطعة الخبز اللينة التي سبق تغميسها في الخمر فيما يشبه طقوس التعميد. يا له من عقرب نادر، فريد من نوعه: "أندروكتوناس أرتوفاجاس".. أو على الأحرى "أندروكتوناس أرتوكراسوفاجاس".

قال "كرونيس":

- "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي...

اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي".

آمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمع صوت شخير أمه من بين قرع أجراس الكنيسة.

استدار بكرسيه المتحرك ورجع مجددًا إلى الشباك. كان شهر مايو؛ مما يعني شيئًا.. أن يأتي عيد الفصح في شهر مايو تلك السنة يعني شيئًا ما. سبق وقرأ عن هذا الأمر منذ يومين على الإنترنت، ولكنه نسيه وهذا شيء جيد. من ناحية، هو منزعج لأنه نسى بهذه السرعة معنى إتيان عيد الفصح في مايو، فهو لا يريد أن ينسى أي شيء. يفضل أن يتذكر كل شيء، لأن الذاكرة هي الحقيقة، والحب، والحياة. ولكن من ناحية أخرى، هو ممتن لأنه نسى، لأن هذا يعطيه تحديًا جديدًا؛ أن يتذكر معنى أن يأتي عيد الفصح في مايو دون استخدام الإنترنت. يدمر الإنترنت ذاكرتك، لأنه يجعلك في غنى عن تذكر أي شيء؛ فقط تضغط زرًا وتجد كل شيء أمام عينيك.

حين تمسح الذاكرة فأنت تمسح كل شيء.. الحقيقة، والحب، والحياة. وإذا مسحت حياتك الحالية، إذا بددت حياتك في هذه الدنيا، فأنت تبدد حياتك الأبدية، لأن الذاكرة وحدها عاجزة.. الذاكرة وحدها جسد مشلول. ليس من الكافي أن نتذكر. لا ذكرى النار تشعر جسدك بالدفء، ولا ذكرى الماء تنعشه. إذا أردت أن تشعر بالدفء، ليس من الكافي أن تتذكر دفء النار؛ بل يجب عليك أن تشعل نارًا حقيقية. إذا أردت أن تروي عطشك ليس من الكافي أن تتذكر الماء؛ بل يجب أن تشربه.

تتطلب الحياة بعض العمل. إذا أهدرت حياتك هنا ستهدر حياتك الأخرى معها، لأن فقط أولئك الذين يعيشون حياتهم على الأرض إلى أقصى حد هم من يعيشون حياة أبدية.. لأن المخرج الوحيد من هذه الحياة إلى الحياة الأبدية هي الحياة نفسها، ليس الموت.. إن الموت لا شيء.

شيء من هذا القبيل.

فلنرجع إلى الرجل العجوز. كان متأخرًا، استغرق وقتًا طويلًا تلك الليلة. هذا يعني شيئًا، لابد من أنه يعني شيئًا. ولكن "كرونيس" عرف أنه مهما بحث عن هذا في الإنترنت فهو لن يفهم. مهما بحث لن يعرف لماذا حبس هذا الرجل العجوز غريب الأطوار نفسه في الغرفة مع الفتاة لمدة ساعات تلك الليلة. يقولون إن التكنولوجيا رائدة كل شيء. بإمكانك أن تعرف في ثوان عدد المرات التي يرمش فيها الشخص كل يوم، وكم من علكة يمكنك أن تجدها في كل متر مربع على أرصفة "كاراكاس"، وكم من يوم مشمس تشهده "منغوليا" كل سنة، وكم من امرأة أوروبية اشترت سريرًا من "أيكيا" وانتهى الأمر بحملها، وكم من أسرة أمريكية يوقِّعون كروت الكريسماس خاصتهم بأسماء كلابهم أو قططهم.

ولكنك لن تعرف أبدًا لماذا يحبس الرجل العجوز نفسه مع الفتاة لساعات طويلة. لن يخبرك الإنترنت بهذا أبدًا. أبدًا.

كان يسمع صوت شخير أمه من بين دقات أجراس الكنيسة..

نصح الطبيب أمه بشرب كوكتيل الـ"لينتين".

طريقة صنع الـ"لينتين".

المقادير:

1 جرعة من "الزاناكس" (1 مجم)

1 جرعة من "السيروزات" (30 مجم)

1 جرعة من "الكيمبالاتا" (30 مجم)

1 جرعة من "الريميرون" (45 مجم)

1 كوب ماء (يفضل أن تكون مياه معبأة)

التحضير:

ضع جميع المكونات في راحة يدك (باستثناء الماء).

اغلق قبضتك ورجهم جيدًا.

ابلع الخليط بكوب الماء.

(ملحوظة: إذا أردت يمكنك أن تشرب الماء بالشفاطة).

فكر "كرونيس" أنه ربما كان يجب أن يكون ساقيًا في حانة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا المكان هو السبب بلا شك. بالتأكيد الجزيرة هي السبب. لا مخبأ لك في جزيرة. في المدينة أنت غريب وسط غرباء، وعلى الرغم من ذلك لا تشعر بالغربة، لأن الكل غريب. ولكن هنا، على الجزيرة، الجميع يعرفك، وأنت تعرف الجميع.. وعلى الرغم من ذلك تشعر أنك غريب.. وستظل غريبًا.

تخالف الجزر الفطرة الإنسانية. يخالف البحر الفطرة الإنسانية. وحدهم الوحوش هم من يستطيعون البقاء على الجزر. الوحوش والأرباب. المسيح، على سبيل المثال، هو وحده من يقدر أن يمشي على الأمواج. وحده الذي يستطيع التغلب على الموت هو من يتغلب على البحر. البحر هو الجحيم. الجحيم هو بحر محاط بجزيرة. هذا هو الجحيم. قطعة من الأرض محاطة ببحر. لا شك في هذا. انظر إلى المسيح. تعلم أن تنظر. انظر إلى المسيح.

- مساء الخير يا أصدقاء. لدينا الليلة ضيفٌ في الاستوديو: "كرونيس بيتراكيس". يا "كرونيس"، لا تمانع أن أندهك بـ"كرونيس" يا "كرونيس"، صحيح؟ (ضحك) - هو شخص لديه مشكلة بالحركة. هو أيضًا من نطلق عليه "لاجئًا داخليًا". منذ عامين ترك "بيرايوس" واستوطن في جزيرة على بحر "إيجة"، جزيرة أجداده. "كرونيس".. مساء الخير ومرحبًا بك (تصفيق).

- مساء الخير يا "نيكوس". شكرًا لاستضافتك لي.

- حسنٌ.. أخبرنا يا "كرونيس".. كيف كانت صعوبة انتقالك من المدينة إلى الجزيرة؟

- مؤكدًا يا "نيكوس" لم تكن يسيرة. لم يخترع أحدٌ كرسيًا متحركًا يطفو، ورحلات المراكب دائمًا ما تكون غير مريحة. ولكننا دبرنا الأمر بفضل العذراء و"سانت نيكولاس". "العبرة بالخواتيم".

كما قال "شكسبير".

هذا ما قاله "شكسبير"، هذا صحيح.

وها نحن ذا الآن، اتضح أن الحياة على الجزيرة بها جانب من الإثارة. على كل حال، فكما قال "جون دون"، ما من رجل يكتفي بنفسه اكتفاء الجزيرة بنفسها. إذا جرفت المياه أصغر قطعة ممكنة من هذه التربة.. فأوروبا نفسها يقل حجمها يومًا بعد يوم وستنجرف أيضًا بسهولة.

- يا له من كلام راقٍ! يمكن أن نعتبر ما ذكرت عن أوروبا يا "كرونيس"، كونها تصغر، أنه تذكرة لرفاقنا وأصدقائنا الأوروبيين.. ربما نحتاج إلى بعض القصص المخيفة أيها السيدات والسادة من أجل أولئك الذين يضمرون شيئًا ما لمواطني هذا البلد الأفاضل الصابرين على المعاناة. كلام راقٍ مستنير. أيمكنك إعادته مجددًا يا "كرونيس"؟ نريد أن نسمعه مجددًا.

- إذا جرفت المياه أصغر قطعة ممكنة من تربتنا..

- إليكم هذا يا أصدقاء! (تصفيق). عظيم يا "كرونيس"، شكرًا جزيلًا لك. عليَّ أن أقول إنني من أشد معجبي "ميامي فايس"، ولكني لا أتذكر أن "جون دون" سبق وتحدث عن جزر أو عن أوروبا أو ما شابه. لقد أخذتني على حين غرة، لم أكن أعلم ذلك.

- لا عليك يا "نيكوس". لا بأس من أن تُؤخذ على حين غرة من حين لآخر وأنت تجهل شيئًا ما. المشكلة هي أن تُأخذ على حين غرة وأنت في ملابسك الداخلية.

- يعجبني حس الفكاهة لديك، يا لك من حذق! (ضحك). أعجبتني المزحة يا أصدقاء (تصفيق).

- أشكرك يا "نيكوس". هي مزحة لا بأس بها. أسمعت المزحة الأخرى عن "دون جونسون"؟

- هاهاهاهاهاها. "كرونيس بيتراكيس" سيداتي وسادتي. رجل فريد من نوعه. فلنأخذ فاصلًا إعلانيًا قصيرًا، ونعود سريعًا..

- عدنا إليكم مع ضيف الليلة، "كرونيس بيتراكيس". حسنٌ يا "كرونيس"..

- حسنٌ يا "نيكوس"..

- كنا نتحدث عن حياتك الجديدة في الجزيرة. أخبرنا عن تجربتك خلال كل هذه الشهور. هلا تصف لنا روتينك اليومي؟

- أنا ألاحظ يا "نيكوس" أنك تكِنَّ أنت وجمهورك حبًا عميقًا للشعر، فلتسمح لي أن أجيبك لا بكلماتي، بل بكلمات "آن سكستون".

- "آن سكستون"، بالتأكيد. يا لها من مغنية! يا له من صوت! (تصفيق).

- بالطبع يا "نيكوس"، شاعرة، مغنية، "شكسبير"، "سكستون"، مدمنة "سكس".. الأمر كله سيَّان. عليّ أن أقول إن حلقة الليلة حقًا مثيرة. حلقة جذابة بامتياز!

- ها هو ذا يا رفاق، يبهرنا بحس دعابته مجددًا! (ضحك). "كرونيس بيتراكيس"، سيداتي وسادتي (تصفيق). فريد من نوعه بالتأكيد. حسنٌ، كلنا آذان صاغية.

- "أنا أجدف، أجدف

رُغم الريح التي تحاربني

وأعرف أن هذه الجزيرة لن تكون مثالية

وأن بها عيوب الحياة المعتادة

وسخافات طاولة الطعام

ولكن يومًا ما سأجد بابًا

وسأفتحه

وأتخلص من هذا الجرذ الذي يكمن بداخلي

أتخلص من هذا القارض الموبوء

ليأخذه مني الإله

ويحتضنه".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طك طك طك.

رجع "كرونيس" إلى النافذة ونظر إلى الجانب الآخر من الشارع. الأنوار مطفأة، والستائر منسدلة. يعرف ما يحتاج أن يفعل، ولكنه لا يعرف ما إذا كان يجب عليه أن يفعل ذلك أم لا. إذ كان واجبًا عليه أن يسرع، لأن الموكب سيمر في أي لحظة. الأجراس تدق. الموكب سيمر في أي لحظة. يا لها من مأساة! مأساة رباعية. مأساة مشلولة.

فلننظر إلى هذا الأمر. المأساة الأولى: الأمر الوحيد الفعال الذي يمكن فعله لإنقاذ الفتاة هو التبليغ عن الرجل العجوز لدى جهات الدولة المختصة؛ مع العلم أن هذه المأساة تحتوي على مأساتين مصغرتين، الأولى: هي "مختصة"، والثانية: هي "جهات الدولة". المأساة الثانية: أن الوحيد الذي بإمكانه التبليغ عن هذا الرجل غريب الأطوار هو "كرونيس"، ولكن "كرونيس" لا يؤمن بالتبليغ عن الآخرين، ولا بسلطات الدولة. المأساة الثالثة: البديل الوحيد المتاح لينقذ الفتاة هو أن يتولى الأمر بنفسه، ولكنه مشلول. المأساة الرابعة: حتى إذا

تغلب "كرونيس" على المشاكل التقنية المتعلقة بجسده المشلول، سوف يجد نفسه في مواجهة مشكلة أخرى أكثر خطورة، وهي: إذا كان فرض العجوز لسيطرته على الفتاة أمرًا غير قانوني، فهذا لا يفرق كثيرًا عن فكرة فرض "كرونيس" سيطرته على العجوز ليمنعه من فرض سيطرته على الفتاة. احذر. لا تقل لي إن الغاية تبرر الوسيلة، هذه الجملة تستفزني. هذا الهراء هو السفسطة نفسها التي أدت بنا إلى ما نحن عليه الآن.

طك طك طك.

فتح "كرونيس" النافذة فتحة صغيرة ليستمع، ثم أغلقها مجددًا. على سطح منزل الرجل العجوز جلست قطة تحدق فيه بعينين صفراوين، وكأنها أكلت للتو سربًا كاملًا من طيور الكناري.

طك طك طك.

احذر، صدقني، هذا أمر خطير. إنها معضلة كبيرة. البلدة بأكملها تعرف أن العجوز يحبس الفتاة معه في الغرفة كل ليلة. والبلدة بأكملها تعرف لماذا يحبس العجوز الفتاة في الغرفة كل ليلة. البلدة بأكملها تعرف أن أم الفتاة تعرف لماذا يحبس الرجل العجوز الفتاة معه في الغرفة كل ليلة. البلدة بأكملها تعرف أن أم الفتاة تعرف ما الذي يحدث في الغرفة كل ليلة حين يحبس العجوز الفتاة معه في الغرفة. البلدة كلها تعرف لماذا تسمح أم الفتاة للعجوز أن يحبس الفتاة معه في الغرفة كل ليلة. الكل يعرف كل شيء، وعلى الرغم من ذلك لا يفعل أحد أي شيء. أكرر، الكل يعرف كل شيء، وما من أحد يفعل شيئًا. أكرر، أكرر وأكرر ألف مرة، وكأنها لغز، أو تعويذة، أو أغنية قصيرة.

الكل يعرف كل شيء، وما من أحد يفعل شيئًا.

الكل، كل شيء، لا شيء.

الكل، كل شيء، لا شيء.

طك طك طك.

الكل يعرف كل شيء، وما من أحد يفعل شيئًا.

اسمع، المعضلة حقًا كبيرة. هي ليست معضلة أخلاقية، ولا اجتماعية أو سياسية أو ثقافية. هي كذلك ليست معضلة مالية، على الرغم من أنه يقال إنه إذا لم تكن أم الفتاة مدينة لكل شخص تعرفه، لم تكن لتلقي بابنتها عند هذا الرجل العجوز كل ليلة. هي ليست حتى معضلة وجودية. بل هي معضلة وجودية.. إذا كان الكل يعرف كل شيء ويفعل لا شيء، فما هو وضعك أنت؟

أنت الذي تعرف أيضًا كل شيء وتفعل لا شيء؟ أنت مثل البقية بالضبط. أنت مثلهم، واحد منهم.

ولكنك إذا فعلت شيئًا، لن تصبح مثلهم بعدها. لن تصبح مثلهم، لن تصبح واحدًا منهم. إذا تحركت وفعلت شيئًا، إذا وجدت طريقة تنهي بها هذه الفوضى، وقتها ستكون مختلفًا. حسنٌ، فلتختر: إما أن تكون مثلهم أو لا تكون. إنه أمر واضح وضوح الشمس، المعضلة.. هل أنت فعلًا من تظن نفسك، أو ربما هذا مجرد ظن لا أكثر؛ وفي الحقيقة أنت شخص آخر، تمامًا مثلهم؟ انتبه لما تقول. انتبه لما لا تقول أيضًا. الكلام الشفوي ليس كلامًا، والأفعال التي لم يتم إنجازها ليست أفعالًا، فلتنتبه. احذر. أنت مسئول ليس فقط عما تقول وتفعل، ولكن أيضًا عما لا تقول ولا تفعل.

كلمات هائلة، كلام عظماء، دُرر من الحكمة.

طك طك طك.

- من هناك؟

“عند نافذتنا تقف عصفورة

تنقر على الزجاج بكلمات متوسلة”.

نظر “كرونيس” خارج النافذة ولم يرَ أية عصافير. أسعده ذلك.

طك طك طك.

العقرب ملتصق بحائط الوعاء، ينقر على الزجاج بكلابتيه.

طك طك طك.

حرك “كرونيس” كرسيه المتحرك بعد عناء، ورجع إلى مكتبه. أحضر قطعة أخرى من الخبز ورماها داخل الوعاء.

انتظر العقرب.

انتظر “كرونيس”.

كانت الفتاة تنتظر هي الأخرى. سمع مواء القطة.

- اقفلي فمك هذا، دعك من التدخل في شؤون غيرك! لم لا تصطادين فأرًا أو اثنين، كل هذا الكناري الذي تأكلينه أمرضك بالصفراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بُني العالم على نحو معين، الغرض منه هو حرمان كل منا من القيام بعمل الخير. لا، هذا ليس صحيحًا. لنبدأ من الأول مجددًا. جاهز؟ حسنٌ. بُني العالم

على نحو معين يخلصنا من الشعور بالمسئولية تجاه عمل الخير. لجميعنا الحرية أن نفعل الشر بألف طريقة مختلفة، ولكن الخير دائمًا ما يكون مسئولية غيرنا. في مجتمعاتنا، الدولة هي التي تحتكر "الخير". كي يستمر أي مجتمع على أداء أبسط أعماله، يجب على الدولة أن تحتكر العنف؛ ولكن الذي يفوق ذلك أهمية هو أن تحتكر الدولة "الخير". هل ضخمت المسألة؟ هل بالغت في الأمر؟ ولكنها الحقيقة.

لا، هذا غير صحيح.. ولكن هكذا تجري الأمور حين نتحدث عن الحقيقة. تمامًا كما نتحدث عن السلطة، فالسلطة ترادف الفساد الذي ينتج عنها. هذا على الرغم من أن السلطة في ذاتها لا تُفسِد، ولا يمكن إفسادها كما يقول أي أبله تشاهده في التليفزيون أو على الإنترنت. ولكن في الحقيقة، السلطة ترادف الفساد الذي تنتج عنه. "سلطة" في حد ذاتها تعني "فسادًا".

على المنوال نفسه، الحقيقة ترادف التجاوز المتعلق بها، مما يعني أنك كي ترى الحقيقة، يجب أولًا أن تتجاوزها. إذا أردت أن ترى الحقيقة كاملة يجب أن تكون على بعد مسافة كافية منها، تمامًا كما في حالة كوكب الأرض؛ إذا أردت أن تراه، يجب أولًا أن تسافر آلاف الكيلومترات في الفضاء.

- سيدي، سيدي.

- نعم؟

- حسنٌ، كما قال "نيتشه"، استفادتي من الفيلسوف تعتمد في الأساس على قدرته أن يعطي مثالًا. هل يمكنك أن تعطنا مثالًا؟

- فتاي العزيز، أنا لست بفيلسوف. و"نيتشه" كان شخصًا سريع الغضب.

- حسنٌ، أيًا كان. أعطنا مثالًا فحسب.

- أي مثال؟

- مثال عما كنت تقول الآن. "الخير" و"الدولة" وما إلى ذلك.

وما إلى ذلك..

- مثال عما كنت تتحدث عنه. أعطنا مثالًا كي نفهمك أكثر.

- حسنٌ. الأمر بسيط. بالنسبة للفتاة، فالرجل العجوز يحبسها في الغرفة معه كل ليلة. ماذا علي أن أفعل في هذا الموقف؟ أي "خير" علي أن أفعل؟ علي أن أبلغ الشرطة، أو مدرس الفتاة في المدرسة، أو "باباجيم"، أو أي قس آخر. في كل تلك الحالات أنا ألجأ إلى أفراد في مواضع سلطة، وهي مسؤوليتي الشخصية لكي أقوم بما هو صحيح.. سيكون هذا فشلًا أخلاقيًا مطلقًا.

الحل الآخر هو أن أتولى زمام الأمور، أن أفرض الخير بطريقة مباشرة. ولكن "فرض" أي شيء في حد ذاته هو ما يعادل "السلطة". إذا استخدمت العنف لأجبر العجوز على ترك الفتاة وشأنها؛ حيث لا توجد أي طريقة أخرى لإجباره؛ هنا، أنا أفرض إرادتي وسلطتي على شخص آخر. العنف هو أكثر أشكال السلطة تطرفًا، والقتل هو أكثر أشكال العنف تطرفًا. بناءً عليه، فإزهاق النفس هو أكثر أشكال السلطة تطرفًا، بقدر ما..

- سيدي، سيدي، عندي سؤال. من يكون "باباجيم" الذي ذكرته؟

- بحقك، ألم تكن تعيرني انتباهًا على الإطلاق؟ أكنت أتحدث إلى الهواء كل هذا الوقت؟ إنه قسنا المحلي، في كنيسة "سانت مارينا".

- لماذا تطلق عليه اسم "باباجيم"؟

- لأن اسمه "ديميتريس"، ويمكنه أن يشرب برميلًا من خمر "الأوزو" في جلسة واحدة. "بابا ديميتريس".. "باباجيم".. "باباجيم".

- آه! سميته على اسم خمر "باباجيم أوزو"! تبًا! أعجبتني! لا يظهر عليك ذلك، ولكنك رجل ظريف يا سيدي. حسنٌ، كلنا آذان صاغية.

- كما كنت أقول، القتل هو أكثر أشكال السلطة عنفًا. وكما نعرف جميعًا، أي تراجيديا تمثل صراعًا بين حقيقتين. في الموقف الذي نتحدث عنه، نحن نتعامل مع حقيقتين: الأولى هي أن إزهاق النفس البشرية هو أكثر أشكال السلطة وحشية، والثانية، والتي تنافس الحقيقة الأولى، هي أن الحياة في ذاتها هي أكثر أشكال السلطة قسوة؛ لأن ما من أحد يأتي إلى العالم طوعًا. لم يسألنا أحد إذا ما كنا نريد أن نولد. نحن نولد، ثم نكبر ونعيش، لأن آخرين قد سبقوا وأخذوا لنا هذا القرار. لهذا، فأعظم مقاومة يقدر أي مكافح للسلطة على القيام بها هو أن ينهي حياته، أن ينهيها بإرادته، فالحياة في ذاتها هي أكثر أشكال السلطة استبدادًا. بناءً على ذلك، فمكافح السلطة الحقيقي الوحيد ليس فقط شخصًا ميتًا، بل منتحرًا. ومع ذلك، إزهاق الروح، كما اتفقنا، هو أيضًا أكثر أشكال السلطة عنفًا. بناءً عليه، فمكافح السلطة الحقيقي هو الذي أدرك أن مكافحة السلطة مسألة وجودية، وأنه لا يمت بصلة إلى هؤلاء الحمقى الذين يعتقدون أن مكافحة السلطة هي رسم حرف A داخل دائرة على الحائط، أو إلقاء "المولوتوف" على رجال الشرطة، أو تكسير زجاج نوافذ المحلات والبنوك. مكافحنا النزيه الشريف ليس بضحية لمأساة، ولا حتى بطلًا للتراجيديا العظمى التي تتوالى فصولها كل ساعة وكل دقيقة في هذا الكون.. بل هو في ذاته تجسيد للمأساة، تراجيديا مجسدة.. لأنك إذا أردت أن تنهي أبشع أشكال السلطة، وهي الحياة، عليك أن ترتكب أبشع أشكال السلطة، وهو إزهاق الروح.. كما حدث في فيلم Quod erat demonstradum.

- سيدي، سيدي.

- ماذا الآن؟

- آسف، ولكننا لم نعد نفهمك. أيمكنك أن تبدأ من البداية؟

- بالتأكيد لم تفهموا. العائلة اليونانية ونظام المدرسة اليونانية هما أساسا الشر. لقد ولدتم من رحم الأولى، ثم ولدتم مجددًا من رحم الأخرى. كيف بحق السماء ستفهمونني؟ اخرجوا، حطموا نافذة أو اثنتين، دخنوا الحشيش، اشربوا البيرة في نخب الثورة وذاكرة "أليكسيس جريجوروبولوس". فقط احرصوا على ألا تتأخروا في الرجوع إلى منازلكم، لأن أمهاتكم أعددن لكم شرائح اللحم مع البطاطس المقلية، وسوف يبرد الأكل. أجل.. لا تتأخروا في الرجوع إلى منازلكم الجميلة، لأن الماما أعدت لكم عشاءً لذيذًا لا تريدونه أن يبرد.

- سوف تقوم بالأمر بالرغم من ذلك يا سيدي، أليس كذلك؟ سوف تفعل ذلك في النهاية، هذا ما تتحدث عنه. نعلم أنك ستفعل ذلك.

- ماذا؟

- أتعرف؟ سوف تفعل ذلك في النهاية. أنت شخص طيب، ووحيد، ومجنون بعض الشيء. هذه الأشياء الثلاثة تليق ببعض.

- شخص طيب؟ ماذا يعني ذلك؟ ومن يكترث؟ ما إذا كنت طيبًا ليس ذا أهمية، ما يهم هو ما إذا كنت تحب.

- الشخص الطيب هو من يفعل الخير، من يفعل الصواب. الشخص الطيب هو من كف عن التساؤل عن سبب فعله للخير. هذا هو الشخص الطيب. أترى يا سيدي؟ نحن نفهم بعض الأشياء. لسنا مجرد حمقى. نقدر على فعل أشياء أخرى، بخلاف تحطيم النوافذ ثم الإسراع إلى منازلنا لنأكل شرائح اللحم والبطاطس المقلية. نحن أيضًا نفهم بعض الأشياء.

طك طك طك.

رجع "كرونيس" بكرسيه المتحرك إلى الخلف، وتوجه إلى المكتب مجددًا. كسر قطعة من الخبز وغمسها في الخمر، ثم ألقاها في الوعاء. هذه المرة لم ينتظر العقرب، بل أسرع تجاه الخبز حتى قبل أن يهبط على البلاطة المكسورة.

طك طك طك.

نقر "كرونيس" بطرف إصبعه على زجاج النافذة.

- خذوا، كلوا. هذا جسدي.

- اشربوا منه جميعكم، هذا دمي.

- آمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظلام يحل. جاء الليل. سيمر الموكب في أية لحظة. استمع إلى الأجراس؛ إنه آت. أو ربما لن يأتي؟ تأخر الموكب عن المعتاد هذه السنة. والفتاة.. تأخرت هي الأخرى. تأخرت في الخروج من غرفة العجوز.

تحرك "كرونيس" بكرسيه كما القبطان في البحر المفتوح: إلى الخلف، ثم توقف، ثم تسعين درجة إلى اليسار، ثم إلى المنتصف، ثم إلى الأمام. خرج إلى الردهة وتوقف أمام الباب المقفول. مال ووضع أذنه عند ثقب المفتاح وأنصت. استطاع أن يسمع صوت شخير أمه من بين دق الأجراس. أحسن صنعًا تلك الليلة بكوكتيل "كايبلينيا" الذي سبق وحضَّره لها. جعلها المشروب تستغرق في النوم. كان يجب أن يكون ساقي حانة على أية حال.

اصمت! لا تُحدث جلبة. لا تدق على الباب. لمَ كل هذا الدق؟! أمي العزيزة نائمة.. ناني ناني ناني ناني.. وإذا كانت تتألم فهذا سيخفف عنها. اهدئي يا أمي في قوقعتك الخاصة، أنت كصغيرة جميلة بملابسك اللؤلؤية. اهدئي يا طفلتي العزيزة. إلى أين أنت ذاهب؟ إلى المُزارع، وأحضان وقبلات طوال الطريق إلى المنزل.

ترك "كرونيس" أمه، وتوجه إلى المطبخ وسحب السكين من الدرج، ثم عاد إلى الردهة، وتوقف أمام المرآة. وضع السكين في فمه وقضم النصل.

احترس، لا تتحمس كثيرًا، لا تدع الغرور يتملكك، هذا السكين هو هدفك..

نظر إلى شعره الأشعث في المرآة، واقفًا كفرقة جنود أفزعتهم صفارة الإنذار من نومهم.

يا "هاملت". يا "هاملت" المسكين، لقد كان السؤال الخطأ، والوقت الخطأ، والمكان الخطأ. السؤال ليس "أكون أو لا أكون؟"، بل "كيف أكون؟". إذا كنت هنا الآن هذا ما كنت لتسأل. إذا كنت هنا الآن على هذه الجزيرة، في هذا البلد الذي ليس شبحًا، بل شيء من نسج الخيال، لأنك كي تكون شبحًا عليك أولًا أن يسبق لك الوجود بقيد الحياة؛ وهذا البلد لم يعش قط؛ لم يوجد.. كله عبارة عن كذبة، قصة خرافية بدايتها معوجة ونهايتها مشوهة تمامًا.. يا "هاملت" المسكين، تعتقد أن الدنمارك سجنٌ. إذا كنت هنا الآن يا "هاملت" المسكين، كنت لتدرك ما السجن الحقيقي. إذا وقفت هنا أمام هذه المرآة، كنت ستواقفني الرأي في أن الآباء والمرايا يستحقون الكره على حد سواء، لأنهما فقط من في إمكانهما مضاعفة عدد البشر.

أو شيء من هذا القبيل.

دفع "كرونيس" الكرسي المتحرك إلى الأمام والسكين بين أسنانه.. وعندما بلغ الباب الأمامي فتحه، ونظر خارجًا إلى اليمين واليسار. عليه أن يسرع. عليه أن يعبر الشارع سريعًا، فالموكب سيمر في أية لحظة. عليه أن يسرع، الموكب على وشك الوصول.

استمع إلى أجراس الكنيسة. دين دان دين دان: هذا صوت دق الأجراس. يا رجل، من الذي مات؟ قطة مجروحة. من جرحها؟ أنا فعلتها، ثم أحضرتها إلى الطبيب، وقدم لها السمن، فقالت له أنها لن تأكل هذا. ثم أعطاها اليخنة، وشكرته القطة.

عليه أن يسرع. عليه أن يسرع. أخرج السكين من فمه ولعق شفتيه. مذاقها كالملح والدم. الملح والصدأ. كان يتذوق الطعم نفسه في فمه لمدة شهور: الملح من البحر، والصدأ من الدم.

يمكنك أن تصنف هذا الكلام تبع "المذهب الطبيعي". كلام رخيص، صادر من أفواه رخيصة، تعبِّر عما يكمن في عقول رخيصة، وقلوب رخيصة. "المذهب الطبيعي" بالتأكيد.

تعال عش هنا لبعض الوقت، ووقتها سأناقشك. تعال وعش هنا، لا كسائح في شهر أغسطس، لا كمخيم في "إكو بيي" Eco Bay، لا كساقي حانة لمدة ثلاثة شهور في موسم السائحين، ولا كمجند في الجيش لا تتعدى إقامته هنا ستة أشهر. تعال وعش هنا، ليس من أجل الكوكايين والحشيش والخمور والرقص، ولا الحفلات المسائية حول شعلات النار؛ الجيتارات والغناء على الشط، وممارسة الجنس تحت ضوء القمر. ليس من أجل النقاشات الفارغة مع الأصدقاء التافهين والفتيات التافهات عن ثورة تافهة.

بل تعال إلى هنا في شهر نوفمبر، عندما تهب رياح "السيروكو" بشدة وتصطدم بالرمال، واستمع إلى طيور النورس وهي تصرخ كالكلاب المسعورة. تعال إلى هنا عندما تهب الرياح الغربية بسرعة أربعين عقدة مصطدمة بالميناء كالوحش البري، ساحقة كل شيء في طريقها. تعال لترى البرق في ليالي شهر مارس وهو يومض بالضوء الأبيض في السماء كما الأشباح فوق صواري المراكب. تعال إلى هنا عندما تمطر السماء على ليالٍ صفراء صامتة، وتجول في البلدة بين الطرقات الضيقة، وانظر إلى البيوت الصغيرة والبشر الصغار. تعال، وسوف تفهم في الحال كم من السهل أن تصبح شخصًا صغيرًا أنت الآخر إذا عشت هنا.

تعال وعش هنا لبعض الوقت، وسوف تبدأ في التساؤل والشك. ولا أعني أنك ستتذكر، أو تتعلم مجددًا. سوف تتعلم. سوف تتعلم أن ترى وأن تصدق. سوف تؤمن بأشياء تعجز أن تراها بعينك. بعدها سترى تلك الأشياء التي تؤمن بها. تعال وعش هنا. هنا، حيث جئنا لنعيش، على هذه الجزيرة، في وسط

البحر، علينا أن نكتب قصة العالم مجددًا من البداية. لا أقصد قصة حياتي أو حياتك؛ بل الحياة ذاتها.. هذا هو ما يجب أن نعيد كتابته من البداية.

علينا أن نكتب قصة الأرض، والبحر، والظلام، والنور، واللغة، والصمت، والنوم، والأحلام، والشغف، والموت، والحياة، والحب. المدينة فخ، والفخ في ذاته أمان. الرعب الذي يأتيك من البحر يفوق الألم الذي يأتيك من هذا الفخ: ألم الأزمة القلبية، أو ألم حصوات الكلى.

تعال وانظر إلى الرعب بقوة في عينيه؛ لأنه من الممكن أن يكون هذا الرعب هو خلاصنا. تعال وتعلم أن تحب الخوف، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكنك من التخلص من خوفك. اقتل الرجل البدائي الذي يكمن بداخلك. قال "بلوتارك" أن من يخشَ الآلهة يخشَ كل شيء، الأرض والبحر والسماء، الظلام والنور، الصوت والسكوت.. والأحلام. اقتله. هو ليس بأبيك، وأنت لست بابنه. كلاكما غرباء. أنت غريب كحارس لبيت شخص آخر. حارس عديم النفع، تجري في دمه عصارة صفراء بدلًا من الدم. أنا لست بخير، فليذهب العالم بأجمعه إلى الجحيم. فقط عندما تؤمن أن هذا البيت ليس لك.. عندها يصبح لك بالفعل.

طك طك طك. يتلوى العقرب في الوعاء. طك طك طك. أكل اللحم وشرب الدم، والآن يريد قطعة خبز أخرى؛ لحمًا آخر ودمًا آخر. العقرب جائع، وظمآن، ينقر الأحجار بكلاباتيه، وينقر الزجاج بذيله، ينقر وينقر. طك طك طك.

قال "كرونيس" للعقرب:

- لا تخف. لا تخف.

سمع "كرونيس" أباه يقول:

- اقتل الرجل الألماني. لا أنا، أتسمعني؟ بل الألماني. على الألماني أن يُقتل. لا تعد الأيام، ولا الكيلومترات. كل ما عليك عده هو كم رجلًا ألمانيًا قمت بقتله. أتسمعني؟ يا "كرونيس"! أحسنت يا "كرونيس"، أنت ولد شجاع. ولكن ماذا حل بك؟ لم تقعد على كرسي متحرك؟

قال "كرونيس":

- إنه ليس كرسيًا متحركًا. هو جهاز حركة. جهاااز حركة.

نظر "كرونيس" حوله. نظر بين أوراق شجرة التوت، وتحت الطاولة المعدنية في الفناء، حيث بنت الدبابير عشًا مرة أخرى.. نظر وراء الركن حيث سارية العلم بلا علم، نظر إلى أواني الريحان والروزماري والنعناع.. نظر هنا وهناك.. أترى يا صديقي ما بإمكان المأساة أن تفعله في الإنسان؟ كثيرٌ من الشفقة، كثيرٌ من الخوف.

بعدها وقعت عينه على حشرة صفراء بأرجل مهشمة تكافح على أرض الفناء. أترى يا صديقي الأشياء التافهة التي يلاحظها المرء حين يكون في ذروة الهلع؟ بعدها رفع يده الممسكة بالسكين، وأشاح بها في الهواء بخفة عنيفة.

صرخ "كرونيس":

- احترس أيها العجوز! احترس من سيفي الحاد المرن، بإمكانه أن يفرمك كما البصلة! يا أبي القلِق، احترس قبل أن تجد نفسك ممددًا على الأرض، تتقيأ روحك، ودماؤك المسفوكة تتدفق في الهواء، وأنا أشاهد بعينين مغمضتين، منتعشًا من لطخات الدم الحمراء. ارحل. ازحف إلى جحرك أيها الفأر العجوز. انت لست بملك وأنا لست بأمير، ولن تشرب أمي خمرًا مسمومًا. نعم، أنا حضرت لها كوكتيل قوي الليلة. "كايبيلينا" رقم 2. شراب قوي به 30 مليجرام من حبوب "السيروكسات". هو ليس بأمر سهل. ستشربه الأم، والابن لم يتجرأ بعد.

- يا "كرونيس"، ما الذي تقول؟ هل جننت؟

- لا يا أبي، ولكني أصبحت فاسدًا. فاسدًا كاللبن الفاسد. يأبى الوقت عن المرور في هذا البيت. التليفزيون ممل، والإنترنت غير متصل فكل ما بوسعي فعله هو أن أقرأ وأقرأ كما لو أن الغد لن يأتي. استغرقت في القراءة لـ"سوفوكليس" و"إسخيلوس" و "شكسبير". إنها كتب صعبة بالتأكيد. على أي حال، قل لي عن أخبارك، ما الجديد؟ ماذا يحدث في الأعلى؟ أنتم بالتأكيد مشغولون هذه الأيام، أليس كذلك؟

- "كرونيس"، أتحمل سكينًا؟ إلى أين أنت ذاهب بهذا السكين؟

- إلى الجحيم، ومعي سلة. لأجمع الخضراوات من أجل وليمة عيد الفصح. سوف نطبخ "الكوكوريتسي" من الهليون البري. سنأكل حتى ننفجر؛ نفرقع. مؤكدًا أنتم بالأعلى لا تشوون لحم الحمل، أليس كذلك؟ أمر منطقي، فالقائد لا يريد أن يشاهد إخوته وهم يُشوون على السيخ.

حسن، علي أن أذهب. علي أن أسرع، الموكب سيأتي في أية لحظة.

دفع "كرونيس" كرسيه المتحرك إلى الأمام وفتح باب الحديقة. الرياح قد اشتدت، وكان بإمكانه أن يرى من الأعلى الأضواء تومض في الميناء، ممتدة من المنارة عند "فونياس"، والتي تومض مرتين كل عشر ثوانٍ. توقف ليتأكد من توقيتها. جيد، ما تزال تومض الومضتين كل عشر ثوانٍ. ما يزال توقيت بعض الأشياء في الحياة مضبوطًا. على الأقل هذا شيء نضعه في الاعتبار. شيء مريح بالتأكيد. نعم. ومضتان كل عشر ثوانٍ.

- "كرونيس"؟

- أبي؟

- يا "كرونيس"!

- نعم يا أبي!

- ما بال عينيك يا "كرونيس"؟ يا بني.. يا "كروناكيس"! عيناك داكنتان وشديدتا الحمرة، وكبيرة مثل عيني البقرة. ما الخطب يا بني؟

- لا شيء يا أبي. لكنك على حق، فأنا أحاول أن أنظر إلى الأشياء وأن أدرسه جيدًا، أتعلم ماذا أرى؟ أرى أفضل عقول جيلي قد دُمرت. ليس بحبوب الهلوسة، بل بالعطالة المستنزفة للحياة. لقد أخذوا جرعة مفرطة من العطالة. أتفهمني يا أبي؟

الكلمات كما السرطان هنا على هذه الجزيرة. الكلمات تأكل مخي رويدًا رويدًا كل يوم، وتأكل لساني، وقلبي، وعانيت الوذمة بسبب اكتئابي، لكنني كنت أفضل الهلوسة.

جديًا يا أبي، لقد فقدوا عقولهم جميعًا. لقد استُهلكوا، زادت الجرعة عليهم وأفسدتهم. أحاول قدر استطاعتي أن أكون مستمعًا جيدًا وأنا أتحدث معهم على الهاتف، ولكن صوت الرياح يغطي على أصواتهم. رياح شمالية أو غربية، لا يهم، كل الرياح تحمل الأصوات بعيدًا.

أتذكر "آنا" يا أبي؟ أتذكر حين كنت تجلس في الشرفة في الصيف وتغمض عينيك تستمع لصوت عزفها وهي تتدرب، حين كان صوتها مثل تهويدة ما قبل النوم؟ أتذكر هذا؟ حسنٌ، باعت "آنا" البيانو، والوقت الوحيد الذي تعزف فيه هو في محل الحلويات الخاص بـ"هانتوميس". تأخذ يورو على الأغنية، وتلبس جاكيت وربطة عنق وشارة اسم، لأن "شوبين" يُحلِّي البقلاوة، ومذاق "البروفيترول" يكون أفضل مع "بيتهوفن".

و"آريس"، العطالة قضت عليه هو الآخر. استغنوا عن جميع الموظفين في مصنع الأثاث، ثم استردوهم مرة أخرى على نحو غير رسمي كعمال يومية بلا فوائد. على الأقل كان يحصل على بعض من المال. ولكن قبل أيام، دخل في شجار مع أحدهم عمَّن سيجمع طاولة غرفة الطعام، فقال له الآخر أن من حقه هو أن يقوم بهذا العمل لأنه الأقدم في هذا المكان. بعدها تطور الأمر، وفجأة أخرج "آريس" مفكًا من جيبه الخلفي وبدأ يطارد الآخر في الشارع. خسر "آريس" أجره اليومي أيضًا، لأن المدير قال إنه لا يريد بلطجة في محله. هو قطعًا على حق! فالمفك قد صنع لتركيب الأشياء وليس لانتزاع الأحشاء! وفي الأوقات الصعبة التي تختبرها بلدنا، علينا جميعًا أن نكون هادئين ومتفائلين، ونشكل جبهة موحدة! لدينا مشاريع نسعى لتنفيذها، وميزانيات، وتكاليف تشغيل، وتكاليف غير مرنة!

وعلى الرغم من أن الأجور مرنة كما الرباط المطاطي، ممتدة برفع كرفع الثلج، مفرودة كما الزبد فوق قطعة كبيرة من الخبز، فالنفقات ليست كذلك.

الأشخاص يكذبون، والأرقام تقول الحقيقة! بالإضافة إلى ذلك، مطاردة الأشخاص في الشوارع بمفكات لن يغير من الأمر شيء. ما هذا الهراء؟! إلى أين يذهب بنا هذا البلد؟ أنعيش في غابة؟!

أتذكر "ريتا" يا أبي؟ حسنٌ، طردها طبيب الأسنان منذ ستة أشهر، والآن هي لا تكف عن البحث في إعلانات طلب الموظفين. تتصل بي كل يوم، آخر مرة تحدثنا قالت لي، استمع إلى هذا: "اتصلت برقم ما، ورد عليَّ رجل نيجيري. قال لي إنه راقص تعرٍ في حفلات توديع العزوبية، في الضواحي الشمالية، وإنه سيعطيني عشرين يورو للحفلة، وسألني ماذا كنت أعمل في السابق. قلت له إني كنت مساعدة طبيب أسنان، وقال: "جيد، حسنٌ، أنت تحسنين التعامل مع مكالمات الهاتف والحجوزات". قال أيضًا: "بحقك، لا تتردي! هذا العمل به مكسب كبير، وفرص جيدة أيضًا".

هل تعلم يا أبي ماذا قالت لي "ريتا"؟ قالت: "يا رجل، أتعرف ماذا أريد؟ أتعرف ماذا أريد أكثر من أي شيء؟ أريد أن يختفي هذا البلد من على الخريطة. أن ينكمش إلى ذرة صغيرة، ثم يختفي من على الخريطة؛ أن يختفي فحسب. هذا كل ما أريد. أن تختفي هذه الدولة الساقطة من على الخريطة إلى الأبد".

أبي. هل تسمعني؟ هل ما تزال هنا يا أبي، أم رحلت؟

سمع أباه يقول:

-"كرونيس"، إلى أين أنت ذاهب بهذا السكين؟

نظر "كرونيس إلى السكين، ثم قبض عليه بيديه بقوة وارتجف. على الرغم من أنه شهر مايو، فالجو شديد البرودة هذه الليلة أيضًا. ثلاثون درجة في النهار، وخمس عشرة في الليل. أو اثنتا عشرة. أو عشر. حر، ثم برد. تمدد، ثم انكماش. اختلال مستمر. ما مدى تحمل الجسد، أو القلب، أو العقل؟

كريك، كراك، "كرونيس" يتمدد.

كريك، كراك، "كرونيس" ينكمش.

كريك، كراك، الهاوية داخل "كرونيس" تتسع.

قال "كرونيس":

- حسنٌ يا أبي، كنت أنوي أن أسرع إلى الشارع لأرى ما الخطب. ثمة أمر مريب الليلة. سأتوقف أمام السلم وأصعد لأرى ما الذي يحدث في هذه الغرفة. لم يفِعل هذا من قبل، لم يبق الفتاة عنده كل هِذا الوقت. أتحدث ِعن

العجوز. إنها أول مرة يحبسها بالداخلَ كل هذا الوقت. أنت لا تعرفها. إذا رأيتها سوف تفهم. هي كالدمية؛ شعر ناعم أشقر، جسد يتوهج كالشمعة في الكنيسة. إذا رأيتها سوف تفهم. فهم العجوز بالتأكيد، ومنذ أن فهم وهو يحاول أن يحول الشمعة إلى رباط مطاطي. لا أعرف ما إذا كنت تفهم ما أعني؛ ما إذا كنت تفهم ما لا يُفهم، وتسمع ما لا يُسمع، وتستوعب ما يستحيل استيعابه. على أية حال، سأصعد لأرى ما الخطب. لأن الموكب سيصل في أية لحظة. سأرفع نفسي وأصعد السلم كالدودة، وأدخل هذه الغرفة لأرى ما الخطب. لماذا استغرقت كل هذا الوقت؟ يجب أن أدخل بنفسي لأرى.

من فتاة الرباط المطاطي إلى الرجل الدودة، حوّل.

من فتاة الرباط المطاطي إلى الرجل الدودة، حوّل.

استغاثة. استغاثة. استغاثة.

من الذي سيقودك إلى البيت الليلة؟ "كرونيس"، بكل عزمه، وعزمه ليس أمرًا يستهان به. ولا حتى ذكورته، برغم عجزه. ولكن لا تقلق، سنصلح هذا الأمر. نعم. حتى هذا سنحييه بعد موته، فالإحياء في كل مكان. العلم يحقق العجائب هذه الأيام. مضخات، حقن، حلقات. هل سمعت عن "الألبروستاديل"؟ إنه علاج سحري. "فياجرا" للمقعدين. آسف، أعني ذوي الاحتياجات الخاصة. آسف، أعني ذوي القدرات الخاصة. سأحارب في الصفوف الأولى مجددًا في أقرب وقت، وكل المقعدين السابقين يحملون راية اليونان الجديدة. حتى هذا سنحييه بعد موته، لا شك في ذلك. سيعود كما سبق، لا شك.

آسف يا أبي، لقد انجرفت واسترسلت في الكلام. ماذا سنفعل؟ تلك سنة الحياة.

- "كرونيس"؟

- أبي؟

- أتمني أن أموت مرتين. أن أحملك بذراعي وأرفعك، حتى إذا توجب علي أن أموت مرة أخرى. لن أكترث. فقط أريد أن أراك تقف على ساقيك مجددًا. يمكنني أن أتحمل الموت مرتين، أو حتى ثلاث، لأراك تقف. لأعصر يديك في قبضتي، لأحملك وأساعدك على الوقوف. هذا هو مرادي وحسب. بعدها سأتقبل الموت مجددًا بصدر رحب. لهذا السبب فحسب.

- انصرف. انصرف يا أبي وإلا مددت يدي عليك. اغرب عني. كفاك نحيب، وإلا لن تموت مرتين، بل مائة مرة. بحقك يا أبي، لا تبك. فلنغنِ بعض الأغاني العسكرية، أو نلقِ بعض الأشعار البطولية عن رجل الدودة المتوجه إلى مصيره بعينين مفتوحتين وفم مغلق. أمشي خلال الثلج وأنا أشتعل، وفي النار

أتجمد. سحابة تتجمع حولي، علامة الشتاء، وأنا أقف هنا مسجونًا، لأستمع للكلمات بداخلي. النار هي النار، وقلبي مكسور، لكن لدي صمغ. هكذا تكتب آخر فصول الحياة.

فلنسكر على كوكتيل من نظريات ما بعد الحداثة، والتعددية الثقافية وما بعد البنيوية، والتناص. جرعة من "أليكزاندرو" وأخرى من "كوبين"، وقليلٌ من "نيتشه". جرعة من "زاناكس" وأخرى من "جريجوريس نيسيس"، اخلطها مع قليل من "بلوتارك" و"بورخيس"، و"أيرينبورج" و"فامفاكريس"، وقليل من نظرية استجابة القارئ والمؤثرات العقلية، وبالطبع استجابة الحكومة إلى معاناة العاطلين.

قال "كرونيس":

- كان علي أن أكون ساقيًا في حانة على أية حال.

ثم وضع السكين في فمه ودفع الكرسي المتحرك إلى الشارع، ولم ينظر خلفه. فليدفن الأموات أمواتًا مثلهم. تحرك "كرونيس" إلى الأمام، ولم ينظر خلفه. لم يسمع صوت حشرجة موت أبيه، ولا شخير أمه، ولا خشخشة العقرب، والذي كان قد كف عن النقر بذيله الأسود على حائط الوعاء الزجاجي، وبدلًا من ذلك بدأ يغرزه في جسد أسمر كالظل لا يشعر بشيء. يطعن مرارًا وتكرارًا بجنون وهوس، هائجًا. يطعن جسده الشاحب المتخم من اللحم والدم.

من فتاة الرباط المطاطي إلى الرجل الدودة، حوّل.

من فتاة الرباط المطاطي إلى الرجل الدودة، حوّل.

استغاثة. استغاثة. استغاثة.

عبر "كرونيس" الشارع بسرعة، ووقف أسفل شجرة التين حيث نشر شخص ما منذ بضعة أيام كثيرًا من "البوتاس" ليجففه.. ربما أفسده. وقف يلتقط أنفاسه، ونظر إلى الأغصان الجافة المرتفعة نحو سماء مصلوبة.. أغصان ممتدة كالأصابع التي لم تسنح لها الفرصة أن تكون قبضة، متجمدة في مكانها في إيماءة مبهمة، سريعة، ثلاثية، كأنها أصابع جافة مرتفعة إلى السماء تنوي الانتقام، والعفو، والخلاص.

قال "كرونيس" وهو يحدق في الأغصان محاولًا أن يلمح النجوم من بينها:

- الأخلاقيات تُشتق في الإنجليزية من كلمة "إيثوس" (Ethos)، و"إيثوس" تعني سكن؛ مقر. هذا ما قاله "ميسكيرش" الكئيب، ولكن دعنا ألا نندفع ونقتله الآن. إذا كانت "الإيثوس" سكن، فهذا يعني أن تغيير السكن يترتب عليه تغير في الأخلاقيات. انظر إلى الجزيرة. الجزيرة تعبث بكل شيء. حيث إنك جئت

لتعيش هنا، فعليك أن تغير مبادئك الأخلاقية. لا، هذا غير صحيح. حيث إنك تعيش هنا، أخلاقيات الجزيرة ستغيرك. حصان "إيفيسوس" الأسود قال شيء مختلف؛ قال إن طابع الرجل هو مصيره، والرجل الكئيب المتشائم القادم من "إيلسينور" قال إن المرض الشديد لا يُعالج إلا بالشدة، والكئيب الآخر القادم من "روكين" يقول إن المعرفة تقتل العمل. المعرفة تجعل السكين ثلمًا.

أو شيء من هذا القبيل.

نظر "كرونيس" إلى آخر الشارع. لقد تغيرت الوجهة، والموكب لن يمر في أية لحظة قريبة أو بعيدة. تغيرت الخطة، والموكب لن يمر على الإطلاق. والأجراس.. إما هو قد أصبح أصم، أو أن الأجراس قد توقفت عن الدق.

تغير في الأخلاقيات وتغيير في المكان. تعبث الجزيرة بكل شيء.

من فتاة الرباط المطاطي إلى الرجل الدودة.

من فتاة الرباط المطاطي إلى الرجل الدودة.

قال العجوز في المقهى:

- لا، لا تسمع إلى هؤلاء المخنثين، كل ما في جسد المرأة مستباح لك، حتى الأماكن غير المعتادة. ولكن إذا أردت سلك طريق غير معتاد، عليك أن تبدأ معها منذ الصغر كي تتعود.

استغاثة، استغاثة، استغاثة.

أدار "كرونيس" كرسيه، ثم توقف عند مقدمة السلم، ونظر إلى الأعلى حيث الغرفة. الأضواء مطفأة والستار مسدول.

- تشجع يا رجل! تشجع يا "كرونيس"! تشجع يا بني! طوبى لمن شُلَّت ساقاه ويرفض أن يُشل قلبه هو الآخر. ولكن يا لها من مأساة! لا تسع الكنيسة المسيحيين الحقيقيين. أولئك الذين بمقدورهم أن يغيروا العالم لا ينتمون إلى هذه الدنيا، هم ليسوا منها. تشجع يا "كرونيس"! تشجع!

لا تستمع إلى الأجانب الآخرين. سيأتي الخير من البحر؛ ليس على مركب ولا سفينة، ولكن على كرسي متحرك طافٍ. فليكن شعرك هو الشراع، ولتكن يداك مجدافين.. جدّف، جدّف، حتى حين تدفعك الرياح إلى الخلف. تشجع يا "كرونيس"! لا تجعل العرق يجف. لا تجعل قلبك يجف هو الآخر. لا تترك يدك لتجف، ولا السكين. تشجع. تشجع. حياتنا وموتنا مع جارنا. اختر أحدهما ليصبح الاثنان واحدًا. تشجع يا "كرونيس"، كن شجاعًا. لا تترك نفسك لتجف.

مد "كرونيس" يده، وأمسك بدرابزين السلم الأخضر. الدرابزين خشن صلب، فكشط جلده.

- يمكنك القيام بذلك. تشجع يا "كرونيس"، لا تثق في الفنان، ثق بالقصة. يمكنك أن تفعلها. تشجع!

وضع السكين في فمه، وقضم النصل، ثم أمسك الدرابزين بيديه، تمسك بالحديد الأخضر بعزم ما فيه، وبكل القوة التي يملكها في النصف الأعلى من جسده، مال إلى الأمام وأفلت نفسه من الكرسي المتحرك. وقع على وجهه واصطدم بحافة درجة السلم، لكنه لم يشعر بالألم. هو لا يشعر بأي ألم على الإطلاق. بدأ في التعرق.

- واحد، اثنان، ثلاث، عشرون. عشرون درجة. تحدٍ. اختبار ليس له مثيل. "كرونيس"، قديس السلم. "كرونيس"، القديس المشلول. الخادم المقدس للكرسي المتحرك. عشرون درجة. تشجع. احكم قبضتك على الحديد في يدك، تمسك بالنصل المعدني في فمك. تمسك بالعرق الذي سيقطر قطرات من الدماء على الإسمنت.

أمسك الدرابزين في يده، والنصل بين أسنانه، وبدأ في رفع نفسه ليصعد السلم. جيد.. جيد. من الجيد أنه يحمل نصف جسد فحسب، وأنه لا يشعر بالنصف الآخر على الإطلاق. إنه يصعد.. لا يزحف، بل يصعد. درجة بعد درجة، لا يهم كم من الوقت سيمر، ولا كم العرق الذي سيهدره، ولا كم الألم الذي ينتظره.

همس "كرونيس"، محدقًا في السماء، والتي تحدق فيه هي الأخرى بملياري عين:

- أنا قادم. أنا قادم.

همس "كرونيس" وهو يتذوق الدم الناتج عن احتكاك النصل بلسانه:

- أنا قادم.

أنا قادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جزيرتنا آخذة في التوسع. في العام السابق عقب شروع البراكين، جاء الألمان والسويسريون من جامعة "هامبورج" و"المعهد السويسري للتكنولوجيا"، وبنوا أجهزة قياس زلازل، وأجهزة تتبع خاصة على الجبل، وحول البحيرات، وفيما يبدو اكتشفوا أن هذه الجزيرة الجوفاء تتحرك في ثلاثة اتجاهات مختلفة بسرعة سبعين ميليمتر سنويًا: نحو الشمال الغربي والشمال الشرقي والجنوب الشرقي. كما اكتشفوا أن الصهارة لا تتحرك أفقيًا فقط بل رأسيًا أيضًا، وعلى طول حافة أكبر صفيحة، يدفع نشاط الحمم المنصهرة تحت سطح الأرض الجزيرة نحو ثلاثة أمتار سنويًا. حتى أنهم وجدوا أن هناك

حوالي مائتي زلزال في عام واحد، معظمها تحت أربع درجات على مقياس ريختر، وأن كميات كبيرة من "الرادون" تتسرب من الخندق الذي فُتح في الشتاء الماضي فوق "موجروس"، وأن بالجزيرة ثلاثة براكين تحت الأرض بالإضافة إلى "كامينيس"، اثنين بين "موراي بيي" و"ميردريس"، وآخر خلف "باربيريان آيل".

يتصرف أبي بغرابة مجددًا. هكذا هو حاله مؤخرًا، كل يوم يسوء عن ذي قبل. أيقظني قبل الفجر يطلب مني أن أذهب إلى البلدة لأحضر مقياس "رادون". قلت له:

- مقياس "رادون"؟ حسنًا، ولكن لمَ العناء؟ لمَ أذهب إلى البلدة و"آنا" تبيع هذه الأشياء في متجرها الصغير؟ سأشتري لك واحدًا عندما أذهب لأشتري السجائر.

في الحقيقة، لا ينبغي أن أقول هذا الكلام، لأن حينها يعرف أنني أسخر منه، ويشعر بالحزن، وينظر إلي بعينين ممتلئتين بالدموع، ولكن أحيانًا يتغلب علي الزهق. قال إنه علينا أن نقيس نسبة "الرادون" في بيتنا، ونتخذ الإجراءات اللازمة لنحمي أنفسنا، فالوضع أصبح خطرًا؛ نحن هنا نتحدث عن "الرادون"؛ إنه ليس بأمر هين. يموت عشرون ألفًا سنويًا في أمريكا من تسمم "الرادون"، ومثلهم في أوروبا.

استيقظ أبي في السادسة صباحًا ليقول لي ذلك. تشاجرنا، صرخنا في بعض. حاولت أن أكون قاسيًا، حاولت أن أكون لينًا، ولكن كله دون جدوى.

قال لي:

- أحضر لي بعض الملابس لأرتديها، وأنا سأذهب بنفسي. أريد قميصي المخطط والشورت الكاكي. قطعًا لن ألبس بنطلونًا طويلًا، فالجو حار.

رمقته بنظرة وقلت:

- شورت؟ تريد أن تلبس الشورت؟

- أجل، الشورت الكاكي ذو الجيوب الكبيرة.

في مرحلة ما فكرت أن أنادي "بوثيتوس"، ولكني تراجعت. ماذا كنت سأقول له؟ هذا ما كان سيقول لي بالتأكيد:

- عزيزتي "إيوانا"، أنا طبيب أعصاب. بالنسبة للأمور المتعلقة بـ"الرادون" والمواد المشعة الأخرى، عليكِ أن تتصلي بمؤسسة الأبحاث، أو هيئة الطاقة النووية.

هذا ما كان سيقول، وكنت سأضحك. وكان سيسمعني أبي من غرفته، ويحني رأسه والدموع في عينيه مجددًا.

في النهاية، وبعد عدة محاولات، نجحت في أن أهدئ من روعه. قلت له إنني سآخذه إلى البلدة فقط إذا أخذ أقراص الدواء الخاصة به، ولحسن الحظ بلعها دون جلبة، وقامت بعملها، ولحسن الحظ هو نائم الآن.

ولكن ليس لوقت طويل. ليس لوقت طويل، أعرف ذلك.عاجلًا وليس آجلًا سيقفز مجددًا ويمسكني من ذراعي ويقول لي ألا أخرج الليلة.

- لا ترحلي. لا أريد أن أتجول في الأرجاء وفي الخلاء أصيح مناديًا اسمك. "إيوانا، إيوانا، أين أنت؟".. صدقيني، إذا خرجتِ، سأموت. الليلة. أعني هذا.

صدقيني.

إذا تركتيني، الليلة ستكون وفاتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيأتي الخير من البحر

- "بيييتروووس"! "بيتراكيييس"! أين أنت؟

ألقى "لازاروس" الملقب بـ"القوس" عصا المشي الخاصة به، ونزل على ركبتيه ووضع أذنه على التربة الجافة. كتم نفسه وأغلق عينيه، وحاول أن يسمع شيئًا، والخوف والقلق يعضان في صدره بعنف كأنهما كلبان يعيشان بداخله. أغلق عينيه وكتم نفسه وانتظر سماع شيء ما.. ليس شيء، بل شخص ما. ليس شخص، بل "بيتروس". إذا كان "بيتروس" قد ذهب إلى "كهف التنين" تلك الليلة، وإذا كان الكهف ممتدًا كما يقولون لكيلومترات أسفل الجزيرة، وإذا كانت الجزيرة كما يقولون جوفاء في بعض الأماكن، هذا يعني أنه بالتأكيد سيسمعه في مرحلة ما.

بالتأكيد سيسمعه في مرحلة ما.

مؤكدًا، ليس هناك من سبيل آخر.

ظل راكعًا لفترة، يكاد يكون ثابتًا تمامًا، يهمس الكلمة نفسها مرارًا وتكرارًا وكأنه يصلي. يهمس صلاته التي تتكون من كلمة واحدة.

"بيتروس". "بيتروس". "بيتروس".

بعدها نهض ووقف على رجليه وهو يتعثر بشدة، وأسند نفسه على عصا المشي. كان محنيًا، ويده الأخرى ممسكة بالكشاف، موجهًا إياه إلى السماء كمحارب مجنون في قصة خرافية أقنع نفسه أن بإمكانه أن يخترق القمر بسيفه.

مال إلى الخلف وعيناه مغمضتان، وتنفس بعمق من أنفه، ثم صرخ بأعلى صوت عنده، بكل ما تبقى له من قوة:

"بيييتروووس"!

"بيتراااااكيس"!

فمه يحب اسم ابنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحول القمر بين خمسة ألوان اليوم. طلع من عند البحر ولونه أحمر، بعيدًا في المساحة الواسعة خلف "الجزيرة الداخلية"، ثم بهت وأصبح برتقاليًا، ثم تحول إلى الأصفر عند قمة "بوليموس"، و"جبل الحرب"، ثم إلى اللون الفضي عند "الجزيرة الخارجية"، وأخيرًا، عند منتصف الليل، عندما بدأ أن يبيَضَّ كعين الأعمى، غسل "لازاروس" الملقب بـ"القوس" وجهه بماء بارد ليفيق. وكعادته

في كل ليلة، ارتدى حذاء الصيد "الميندل تايجا" الخاص به، مضاد للماء ووزنه أقل من الكيلو، مصنوع من قماش "جور تيكس" المريح، برغوة ذاكرة / رغوة ذكية مريحة، ونعل "إير أكتيف"، وبطانة "مالتيجريف" مطاطية طبيعية. ثم ارتدى بنطلونه "الديرهانتر" المتين المضاد للماء، وصدرية "بيريتا" ذات اللونين التي لها جيوب خفية، وأكثر من جراب في الأمام. بعدها ربط في ساقه بقوة سكين الصيد "الكابار" خاصته ذو الحدين - والذي بإمكانه أن يصد الأشياء الشريرة - ووضع المسدس - والذي بإمكانه أن يصد الأشخاص الأشرار- تحت إبطه مائلًا، وشعر بنفسه أنه قوي وقادر، وكأنه كان يلبس بدلة مدرعة كاملة. أخذ الكشاف وعصا المشي المتينة المقوسة المعقودة، المنحوتة من خشب "الأبيليتسيا"، وخرج مسرعًا من المنزل قبل الفجر في "يوم الصلاة على الأرواح"، السابع من يوليو، وجدران المنازل البيضاء تلمع في ضوء القمر، تتدرج نزولًا من القلعة في قمة التل، حتى تصل إلى البحر؛ كالزَبَد على مياه شاطئ "هيونا" في الشتاء.

قرر "لازاروس" أن يمر الليلة من طريق آخر. قرر أن يتتبع ضوء القمر، ثم يتجه غربًا إلى "الجزيرة الخارجية"، حاضنًا الشط طوال الطريق حتى "ساكاند كومينج"، ثم يدور حول البحيرة ويرجع خلال "مضيق القاتل"، وقبل أن يصل إلى "فجوة الوحش"، يتجه شمالًا إلى "موجروس". لم يمش هذا الطريق على قدميه من قبل، ولكنه توقع أن يصل إلى "كهف التنين" في الفجر؛ في الوقت المناسب ليرى الشمس وهي ترتفع فوق البحر. كان حريصًا على أن يصل في الوقت المناسب ليرى الشروق من أعلى الكهف، فبالنسبة له هذه علامة، هو فأل حسن أن يرى الشروق. بالإضافة إلى ذلك، فضوء الشمس يحضر معه شعاعًا من الأمل، بغض النظر عن كم الظلام الذي تحمله معك، بداخلك، فدائمًا ما يقدم ضوء الشمس لك شعاعًا من الأمل؛ وكما قال "كارونيس" المخبول منذ بضعة أيام في الحانة، يجب أن نؤمن بالشمس؛ ليس فقط لأن بإمكاننا أن نراها، بل لأنها هي التي تجعلنا نرى كل شيء.

ليس بالأمر الهين أن تدير حانة. الأشياء التي يمكنك أن تتعلمها هناك لا حصر لها. فقط عليك أن تبقي عينيك وأذنيك مفتوحتين طوال الوقت، ليس فقط لتتفقد الطلبات، والحساب، والزبائن، والنادلين، بل كيلا يفوتك شيء، كي تلاحظ كل شيء، وتسمع كل ما يقوله الناس.

تخطى "لازاروس" بيوت البلدة، واتجه إلى طريق "أراضي دَرس المحصول السبعة"، وتوقف عند ينبوع "ميوت" ليملأ زجاجته. وضع رأسه تحت الماء المتدفق، وترك الماء يحفر في جلده كشفرات لا حصر لها تشرح مؤخرة عنقه وجوانب رأسه وأذنيه.

سرعان ما سمع صوتًا يسأله:

- مرحبًا يا "لازاروس"، ماذا تفعل يا رجل؟!

قال "لازاروس" دون أن يلتفت له:

- ماذا تعتقد؟ أحاول أن أفيق كي أسكر مجددًا.

كان يرى من مكانه القلعة المتهدمة فوق التل، وكنيسة "العذراء المذبوحة"، التي يشرق بياضها في الظلمة غير المكتملة كصَدَفة حملتها الأمواج القديمة إلى قمة صخرة سوداء. جلس هناك واضعًا ساقًا على الأخرى، ولف سيجارة - آخر سيجارة في الليل المنحسر، وأول سيجارة في النهار البازغ - ونظر إلى الأفق المبهم، ثم شعر بيدين تزحفان على ظهره، وتمسكانه من كتفيه.

- أتعرف يا "بيتراكيس"؟ كانوا يقولون قديمًا أن "كانوم هوكا"، هذا الكلب القذر، كان يقعد هناك عند القلعة، ويقطع التبغ بسيف على أيقونة مريم العذراء. لهذا السبب سموا الكنيسة "العذراء المذبوحة". إلى الآن، إذا نظرت لها عن قرب ستجد العلامات محفورة على الخشب كما هي. هناك جروح مثل هذه في كافة أنحاء الجزيرة يا "بيتراكيس"، حفرها العرب، والجرمان، والبنادقة، والأتراك، والقراصنة، والإيطاليون، والألمان.. جروح من سكاكين عدة. ولكن أعمق الجروح، التي كانت موجعة أكثر شيء، كانت التي حفرناها بأنفسنا. سكين الأخ يقطع جرحًا أعمق مرتين من سكين الغريب. ويبقى الحال كما هو عليه.

أنهى سيجارته، ثم أطفأها على حافة الحائط القصير، ونظر لآخر مرة إلى الكنيسة، ثم نهض. وضع الزجاجة في الجيب الأيمن من صدريته - ففي الجيب الآخر زجاجة من "التسيكوديا" - وأمسك كشافه وعصا المشي الخاصة به، وانطلق على الطريق الترابي، عيناه على الأرض، يتحدث مع "بيتروس". هو يتخيله يمشي معه، بجانبه، لأنه يريد هذا بشدة؛ يريد ابنه أن يكون بجانبه الليلة أكثر من أي وقت مضى. إنه شيء مريح أن تسمع صوت شخص ما في الظلام، مريح جدًا، حتى إذا كان هذا الصوت هو صوتك أنت فحسب.

- جروح من سكاكين كثيرة يا بني، كثيرة جدًا. كنا مقسمين إلى يمين ويسار من قبل، والآن أصبحنا أجانب و"فئران". حفنة من الناس على حفنة من التربة، نفعل ما بوسعنا لنبيد بعضنا. ها نحن ذا في القرن الحادي والعشرين، وما نزال نصطاد بعضنا بعضًا. هذا المكان يتفتت، كل شيء متهاوٍ، ولكن ها نحن ذا، سكين في مقابل سكين، وجرح بعد الآخر. نحن الأجانب في كفة، و"الفئران" في الكفة الأخرى. الآن شرنا انضم إلى شرهم، انضم إلى الكومة. أتعرف ما السبب يا "بيتراكيس"؟ السبب هو أننا لم نحب هذا المكان حقّا البتة. لم نحبه قط. يتحدث الناس عن الفخر. بالطبع، أنا فخور أنني يوناني. ولكن ما جدوى الفخر؟! أخبرني، الفخر شجرة جذورها متعفنة؛ إذا هبت الرياح سقطت.

ما نحتاجه هو الحب. عليك أن تحب أرضك، أن تشعر بها، هذا ما يهم. وحيث إننا لم نحب هذا المكان حقًا من قبل، عاجلًا أو آجلًا سينتهي بنا الامر ونحن نمقته. هذا ما حدث بالضبط. ربما هناك ما يُسمى بالحب الزائف، ولكن ليس هناك ما يُسمى بالكره الزائف. لهذا نكره هذا المكان بشدة الآن. هذا ما يتحدث عنه معظم الشباب؛ الجيل الجديد. بخلافك أنت يا "بيتروس". بخلافك أنت يا بني، أنت لا تملك قطرة من الكراهية في جسدك كله. أتحدث عن الآخرين، ليس أنت. "بيتروس"، "بيتراكيس"، ولدي الشجاع، الضوء الذي أرى به.. أعني الآخرين، بخلافك أنت.

مشى "لازاروس" وعيناه ثابتتان على الأرض، تتحركان مع حركته.

منذ بضعة أيام قال أحد ما في الحانة إنك وأنت صغير تخطط للمستقبل، وعندما تكبر تحن إلى الماضي. لهذا تختفي متعة الحياة، متعة العيش في اللحظة، هنا والآن. الحنين إلى الماضي والتخطيط للمستقبل. التخطيط للماضي والحنين إلى المستقبل. يتورط "اليوم" في معركة بين "الغد" و"البارحة"، فيتلوى ويموت. أتسمعني؟ حقًا أتمنى لو كنت تسمعني.

كلام نابع من الخمر، و"التسيكوديا"، و"الأوزو". ولكن "لازاروس" يحب الاستماع لمثل هذا الكلام. مخه كالإسفنجة، يمتص كل شيء. لهذا يشرب، ليبقي الإسفنجة رطبة، كي تمتص جيدًا، كي تمتص أكثر، كيلا يهدر شيئًا. وأيًّا ما كان ما تخزنه الإسفنجة، يعصره بعد ذلك على إسفنجة ابنه الصغيرة التي ما زالت صغيرة بالطبع، عديمة الشكل، مسامها لم تتفتح بعد. ولكنها ستفعل في الوقت المناسب.

هذا هو الحب. ربما يقول شخص آخر:

- أنا أحب ابني، ولا أكترث لأمر نفسي، كل ما أفعله هو لابني. أريد أن أرى ابني ينجح في حياته، حتى أصبح فخورًا به.

كل هذا هراء. إذا لم تحب نفسك، فكيف ستحب ابنك؟ إذا لم تحب ما أنت عليه، كيف ستحب ما لستَ عليه؟ هذا كلام قديم، المسيح قاله من ألفي عام، ولكن الناس لا يجعلونه يتخلل إلى عقولهم من جماجمهم السميكة. لم يأمرنا المسيح بأن نحب جارنا بدلًا من أنفسنا. أمرنا أن نحب جارنا كما نحب أنفسنا. كان محقًا. إذا لم تحب نفسك، محال أن تحب أي أحد آخر على الإطلاق؛ ولا حتى ابنك. إذا لم تكن لديك طموحات خاصة بك، كيف ستكون لديك طموحات لابنك؟ إذا لم تحقق شيئًا في حياتك، كيف تتوقع من أبنائك أن يحققوا شيئًا في حياتهم؟ أحمق مسكين.

طبعًا ستسألني ما الذي حققته أنا لأتحدث بهذا الكلام الكبير. حقيقة أني كنت أبًا وأمًا لهذا الولد فحسب، كل هذه السنين، وهو ليس بالأمر الهين. وكوني جئت لجحر الثعبان هذا ونجحت في أن أقف على قدمي خلال سنين قليلة؛ ألا

يعد هذا أمرًا كبيرًا؟ وحتى إذا كنت لم أحقق أي شيء على الإطلاق، ما زلت مختلفًا عنهم. لأن لدي المعرفة، أترى؟ أعرف من أنا، وأين أقف، وكيف أربي ابني. لدي أعين وآذان في كل مكان.

أنا لست شخصًا بفم أسد وقلب ذبابة. كلا، بل لدي قلب أسد وفم ذبابة.

هناك فرق شاسع.

أترى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشى "لازاروس" وعيناه على الأرض. وشعر وكأن أعين أخرى تراقبه الليلة، كما العفاريت في القصص الخيالية، ظهرت ألف عين تحدق في الظلام. وعندما وصل إلى الطريق المستقيم حيث تبدأ "الأبواب"، الطريق الضيق الممتد الذي يربط بين "الجزيرة الداخلية" و"الخارجية"، الجزء "الأسفل" و"الأعلى"، "الصفد الصغير" و"الصفد الكبير"، خطا خارج الطريق ووقف على حافة هذا الجرف الشنيع، ونظر إلى الأسفل على البحر الممتد إلى اليمين واليسار. نظر إلى الأمواج واللون الأبيض على حافتها كما لو كانت حواجب مزبدة تعلو أعين المياه العمياء التي لا حصر لها. نظر بعيدًا إلى الأضواء التي تومض من الجزر الأخرى، والتي تبعث رسائل صامتة الليلة مجددًا؛ رسائل مبهمة غامضة.

- "بيييتروووووس"!

"بيترااااكيييس"!

شكل يده على شكل قُمع وصاح. صاح بكل ما يحمله جسده من قوة، صاح حتى غطى صوته على أنين الرياح الشمالية، والتي يبدو أنها تحمل أصواتًا غريبة من مكان بعيد.. أنين، عواء من أفواه تبدو وكأنها ليست بشرية. صاح حتى أوجعه صدره، وتضخمت العروق في رقبته، والدم والبلغم توحدا والتصقا بحلقه كما الصخرة.

انحنى إلى الأمام وسعل، وجسده كله يرتجف، سعل بشدة حتى بدأ في التعرق. سعاله كان جامحًا، قاطعًا، كنباح الكلب اللاهث المصاب بالربو.

مسح فمه في كمه وتنفس بعمق. انتظر. نظر أمامه، والصورة أمامه مشوشة، وانتظر وهو غير قادر على الرؤية.

بعدها فرد نفسه ووضع يديه في وضعية القُمع على فمه مجددًا:

- "بيييتروووووس"!

"بيترااااكيس"!

هل تسمعني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصيف الماضي، دخلت سيدتان عجوزتان المطعم. كانتا سائحتين. ذهب "بيتروس" ليأخذ طلبهما، ففتحتا قائمة الطعام وبدأتا تفيضان عليه بالأسئلة عن ماهية الوجبات في القائمة. كنت أجلس في جانب المطعم، ورأيته وقد بدأ يضيق صدره. أعني، هو في أيامه الأولى في هذه الوظيفة ولم يعتدها بعد، لا يكف عن التذمر والاستياء. لا أعلق على شيء من هذا، قررت أن أنتظر وأرى ماذا سيحدث. طلبت السيدتان - على ما أتذكر - سلطة و"تازيكي"، ثم انتقلتا إلى الأطباق الرئيسية. رأيتهما تتصفحان القائمة، وتهمسان لبعضهما، وتنظران مجددًا إلى القائمة، وتهمسان مجددًا، ثم سألتاه سؤالًا، ورأيته ينحني إلى الأمام لينظر إلى القائمة هو الآخر، فأشارت إحداهما إلى مصباح السقف. احمر وجهه بشدة، وقال:

- لا، لا، لا أقصد مصباحًا (lamp)، بل أقصد لحم الحَمَل (lamb)، لحم الحَمَل، لحم الحَمَل! أتعرفونه؟ باااااء، باااء.

بدأت السيدتان في الضحك، وقالتا:

- حسنٌ، حسنٌ!

ثم أخذ "بيتروس" القائمتين منهما وجاء وهو في حالة غضب، وسألني من الذي كتب القائمة بالإنجليزية. قلت له:

- "سيفيس"، القادم من "ميرامار" المجاورة. لم تسأل؟

- قل لهذا الأحمق أن الحيوان الذي يقول "بااء باااء" يُكتب اسمه في الإنجليزية بحرف الـ"b" وليس الـ"p". هاتان العجوزتان ظنتا أننا سنقدم لهما مصباحًا مشويًا مع البطاطس. بدونا كالأغبياء.

تذكر "لازاروس" الملقب بـ"القوس" المشهد كله مجددًا وهو ينظر إلى الأسفل على أضواء الميناء من أعلى "أجيوبيس". يذكر كيف احمر وجهه تلك الأمسية، وكيف كتم الضحك، اتسعت فتحتا أنفه، وفجأة انفجر الاثنان في الضحك - تخيل، مصباح مشوي مع البطاطس - وكلٌ وضع ذراعه حول كتفي الآخر، يضحكان تحت شجرة العنب. يذكر "لازاروس" كيف احتضن ابنه، وكيف شعر أنه لم يكتفِ منه بعد، وشعر بذقنه تخدش رقبة ابنه الناعمة، وبشعر ذراعه يقف وهو يضم صدر ابنه ذا العظم البارز. هو أمر عجيب، أن يقف شعر ذراعك وأنت تلمس لحمًا قد أتى من لحمك أنت. تذكر كل هذا لاحقًا، وحكى قصة السيدتين العجوزتين، وضحك الجميع؛ ضحكوا حتى بكوا، تخيل، مصباح مشوي بالبطاطس. تذكر "لازاروس" كل هذا تلك الليلة وابتسم، وأراد أن

يضحك حتى البكاء كما سبق وفعل في تلك الأمسية في الصيف الفائت، يضحك حتى يبكي.

تذكر كل شيء تلك الليلة، "لازاروس" الملقب بـ"القوس". تذكر أيضًا ليلة أخرى، بعد بضعة شهور، عندما جاء "دراكاكيس" ومعه مجموعة من العاهرات يلبسن تنانير في غاية القِصَر. أجلسهم "لازاروس" على أفضل مائدة، وقدم لهم "هامور" منقط يبلغ وزنه سبعة كيلو ونصف، كان كبيرًا كالطفل الرضيع، وشاهد أطباق جراد البحر تأتي واحدًا تلو الآخر، والمحار، و"التين البحري"، وقام بصب المزيد والمزيد من الشامبانيا والخمر. قال "دراكاكيس":

- هاتوا ما عندكم، على السمك أن يؤكل وهو طازج، وعلى المال أن يُصرف وهو طازج أيضًا.

عندما اقترب الفجر جلس "لازاروس" عند المائدة، وندە "بيتروس" هو الآخر، وقدم "بيتروس" للسيد "هاريس دراكاكيس"، مالك السفينة. جلس "بيتروس" بجانبه ونظر إلى الشقراوات يثرثرن بصوت كصوت الأوز. سحب "دراكاكيس" بعض السجائر من جيبه، وقدم واحدة لكل منهما، سجائر بحجم مواسير الموقد. صب لهم بعض الخمر، وقرعوا الكؤوس ببعضها، وطلب "لازاروس" من ابنه أن يحكي قصة العجوزتين والمصباح، ضحك "دراكاكيس" بشدة لدرجة أنه كاد أن يقع من على كرسيه، ثم أمسك "بيتروس" من كتفيه، وطلب منه أن يستمر في التحدث، أن يستمر في إضحاكهم. شاهد "لازاروس" ابنه وهو يتكلم، والسيجار بين إصبعيه، وشاهد "دراكاكيس" وهو يضحك، ماضغًا سيجاره ذا الطرف المتدلي، وتساءل ما شعور أن يكون لديك المال، كثيرٌ من المال.. أن تكون شابًا لم تكمل الثلاثين بعد، ويكون لديك مال أكثر مما يستطيع الشاب الذي يجلس بجانبك أن يصنعه في ثلاثين حياة بجانب حياته. أن تملك نصف جزيرة، أن تغير نساءك كل أسبوع، وتغير سيارتك كل شهر، ويختك كل سنة. المال.. أكوام من المال. أن تقفز في اليخت الخاص بك بعد الظهيرة، وتبحر إلى "ميكونوس" لتسبح، ثم تذهب لتتناول العشاء في "سانتوريني".

بعد مرور أسبوع جاء "دراكاكيس" مجددًا إلى الحانة، وطلب من "بيتروس" أن يحكي له المزيد من القصص المضحكة. في الأسبوع الذي يليه دعاه إلى اليخت الخاص به، وبدءا يقضيان وقتًا طويلًا معًا، وبعد شهرين أو ثلاثة عرض عليه أن يعمل سائقًا في مكاتب "بيرايوس"، سيكون أول مرتب له ألف يورو، وكل التكاليف مدفوعة له. لم يرد "بيتروس" أن يذهب؛ قال لأبيه إنه لم يرد أن يصبح سائقًا، بل أراد أن يصبح مهرجًا. ولكن "لازاروس" ضغط عليه ليقبل، لم يكن ليدع فرصة مثل هذه تضيع هباءً.

قال له "لازاروس":

- ستذهب. يتقاتل الشباب مثلك على فرصة عمل مثل هذه. أتحدث هنا عن عائلة "دراكاكيس"؛ هم يملكون الجزيرة بأكملها. أتحدث عن أكوام من المال، هذا شيء لا يستهان به. لا يمكنك أن ترفض ما يقدمه لك. كلما يأتي إلى الحانة تكون فاتورته عشرة أضعاف الآخرين. وحتى هذا ليس الأساس، الأساس هو أن طريقًا واسعًا مفتوح أمامك. طريق مرصوف بالمال. ستذهب. لن أدع مصير ابني ينتهي إلى مالك حانة. ستذهب.

قال "بيتروس":

- هناك أمر آخر. "دراكاكيس" يريدني..

- ما من أمر آخر. ستذهب. عليك أن تذهب. ليس من أجلي، بل من أجلك أنت. من أجل مصلحتك أنت.

ستذهب.

ستذهب، انتهى الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المال. "الألفا" و"الأوميجا". هو حيث يبدأ كل شيء وحيث ينتهي كل شيء. كل ما عداه ضئيل الحجم. كل من ينكر ذلك هو إما أبله أم كاذب. لهذا السبب يصاب الفقراء بلعنة أبدية. لأنهم لا يكرهون المال، فقط يكرهون من يملكونه. يكرهون المال ليس لأنه موجود، بل لأنهم لا يملكونه. لهذا السبب هم مصابون بلعنة أبدية، لهذا السبب لن تكون لهم أية سلطة. لأن ما يريدونه هو ليس أن يتخلصوا من الفقر، بل أن يصبحوا أغنياء.

مشى "لازاروس" وعيناه ثابتة على الأرض وهو يتحرك، تتحركان معه على الأرض. مشى ورأسه منحن، يشعر بأعين أخرى تراقبه. الليل ملئ بأعين كثيرة مجددًا، أعين كثيرة لاَ حصر لها، عندما وصل إلى مفترق الطرق عند "ديدالا"، توقف ليلتقط أنفاسه، واحتسى جرعة من "التسيكوديا"، ثم دخن سيجارة.

المال. منذ طفولة "بيتروس"، عندما كان كبيرًا بما يكفي ليفهم، حاول أن يعلمه حب المال. قال له:

- أحِب المال، لا تخشاه. المال جزء منك، تذكر هذا. هو مثل قلبك، وذراعيك وساقيك. هكذا هو المال. هو جزء منك. أتستطيع العيش دون قلب؟ إذا طُلب منك أن تختار إما أن تعيش بذراعين أو من دونهما، ماذا تختار؟ هكذا هو المال. هو مثل قلبك، وذراعيك، وساقيك. عليك أن تملك المال. أتسمعني؟ لن تستطيع أن تعيش دون المال. لا مغزى من العيش دونه.

أحِب المال. اهتم بالمال. أحِبه كما تحب ذراعيك وساقيك، وعينيك وأذنيك. لا تستمع إلى من يقول إنه ليس من المهم أن تملك المال. كما لو كان الأمر سيان أن يكون لديك ذراعان أو ذراع واحد أو لا شيء على الإطلاق. لا تسمع إلى هؤلاء. أحِب المال. أحبه، لا تخشاه. من يكره المال، يكره نفسه. ومن يكره نفسه، يكره العالم أجمع. هذا الكره هو شيء يزرعه الفقراء. هو ما يكنه الرجل الأعمى للرجل الذي يرى، والمشلول للذي باستطاعته أن يمشي.

تذكر أنه على الرغم من كراهية الفقراء للأغنياء، فكرههم لأنفسهم لعدم كونهم أغنياء يفوق أي شيء.

أحِب المال. لا تعبده، ولا تخشاه. ولكن أحبه.

هذا صنف نادر من الحب يمكنك بالفعل أن تجني ثماره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"بيييتروووووس"! "بيتراكيييس"!

مشى "لازاروس" وعيناه ثابتتان على الأرض وهو يتحرك، تمشيان على الأرض معه. مشى بضوء الكشاف، يشاهد ظله يتمدد ليصبح طويلًا ورفيعًا، كحبل يربطه بالليل الذي تركه وراء ظهره، ويربطه بالظلام الذي ينتظره.

عندما وصل أعلى شاطئ "ماجو"، انحنى عند حافة الطريق، ووضع أذنه على الأسفلت الصلب، ينصت ليسمع شيئًا ما. ليس شيئًا ما، بل شخصًا ما. ليس شخصًا ما، بل "بيتروس". إذا ذهب إلى "كهف التنين" تلك الليلة، وإذا امتد الكهف، كما يقولون، لعدة كيلومترات تحت الجزيرة، وإذا كانت الجزيرة، كما يقولون، جوفاء في بعض الأماكن، هذا يعني أنه في مرحلة ما، بطريقة ما، سيسمعه. بالتأكيد، في مرحلة ما سيسمعه.

بالتأكيد.

- "بيييييتروووووس"!

"بيتراااااكيس"!

أين أنت؟

فمه يحب اسم ابنه.

وقف مجددًا وأشعل سيجارة، ينظر إلى البحر المظلم الممتد في طريقه، وعلى المضيق، وعلى "الكهف الأسود" المفتوح كفم على وجه صخرة.

هنا شنق توأم "كوميتيس" نفسيهما. الولد أولًا، ثم لحقت به أخته بعد شهر.

كانا في العشرين من عمرهما، ماذا يعرفان عن الألم والمعاناة؟ ماذا عن معاناة الأب؟ ألم يضع أحد هذا في اعتباره؟ مسكين "كِوميتيس". جاء الوغد

المسكين إلى هنا من الجانب الآخر من اليونان، "دراما"، أو "زانثي"؛ أيهما. في البداية فتح متجرًا صغيرًا عند الميناء، لإصلاح الهواتف المحمولة المعطلة، وأجهزة الكمبيوتر، والتليفزيونات. بعدها صنع جهاز تتبع للغنم والماعز، وباعه لبعض اليهود، وربح كثيرًا من المال.. كثيرًا منه. وما لبث أن شكر ربه، وظن أن بإمكانه أخيرًا أن يستريح قليلًا، حل عليه هذا البلاء. انتهى به الأمر حاملًا كفنين على ظهره لبقية حياته. "كوميتيس" المسكين. هل وضع أي أحد ألمه في الاعتبار؟

الأبناء. يربيهم الناس هذه الأيام كأنهم محور الكون. يقعون في حبهم في اللحظة التي يأتون فيها إلى الدنيا، يغرقونهم في الأحضان والقبلات، يسيل لعابهم عليهم، يمتصونهم إلى داخلهم وكأنهم يريدون أن يملؤا فجوة ما، هذا ما تفعله الأمهات والآباء والجدود والجدات. لهذا ترى الأطفال يكبرون على هذا الحال، أقزام قبيحة متأخرة في النضج. شاحبون، ضعفاء، جبناء، قلوبهم ضعيفة. يمتص آباؤهم كل قوتهم ودمهم منذ لحظة ولادتهم؛ بل قبل ذلك، منذ كانوا في الرحم. لهذا يكبرون فارغين، وفي نهاية المطاف يأتي الوقت ليصبح لديهم أبناء، ليخنقوهم بحبهم، ويمتصوا طاقتهم حتى يجفوا هم أيضًا؛ يمتصون أرواحهم وقوتهم ودمهم. العائلة. مصاصو دماء، مصاصو أرواح. مصاصو دماء ينجبون مصاصي دماء ينجبون مصاصي دماء جدد. بلد مصاصي دماء، هذا ما نعيشه هذه الأيام. مصاصو دماء.

دخن "لازاروس" سيجارته، ونظر إلى البحر، وفي تلك الليلة تذكر مجددًا. تذكر اليوم الذي تلا عيد الربيع، حين أتى أحد أتباع "دراكاكيس" البلهاء - مخنث لديه وشوم وحواجب مرسومة - وسأله عن "بيتروس".

- أتسألني أنا؟ أليس معكم؟

قال المخنث:

- أرسلني "هاريس". لم نره منذ أيام، لهذا نبحث عنه.

- منذ متى؟

- لا أعرف. أيام.

- أحدث شيء ما؟ أحدث شجار أو ما شابه؟

- لا أعرف. "هاريس" أرسلني لأسألك.

كان هاتف "بيتروس" مغلقًا. حاول "لازاروس" أن يصل إلى "دراكاكيس"، لكنه لم يرد هو الآخر. في الصباح التالي أحضر صندوقًا من النبيذ للشرطي السكير "بيتيهاكيس"، وجعله يخبر زملاءه في الجزر الأخرى عن الأمر. ذهب إلى العمدة، والقس، ورئيس المستشفى. ذهب إلى الميناء وتحدث إلى جميع

الصيادين وسائقي التاكسي. كل ما استطاع أن يكتشفه من شرطي الميناء الذي يخاطبه الجميع بـ"اسمعني"، هو أن "دراكاكيس" جاء إلى الجزيرة نهاية الأسبوع الفائت على يخت أحدهم، وأحضر معه كثيرين، ما يقرب من اثني عشر شخصًا.

- أكان ابني معهم؟

- انسَ الأمر يا صاح، لا جدوى من إثارة المشاكل.

- فقط أخبرني يا رجل!

- اسمعني، انسَ الأمر فحسب.

- أخبرني.

- حسنٌ، عندما ثمل الجميع، أمسك "دراكاكيس" المجنون بابنك وربطه بالدرابزين، وأحضر مقصًا ليقص شعره. بعدها انضم له الآخرون مع مجموعة من العاهرات اللاتي تحمسن أيضًا، وأقسم لك، بدأوا في ملء مجموعة من الواقيات الجنسية بالبول والماء، وأخذوا يرمونها على رأسه. كان الأمر في غاية الإذلال، شيء لا يصدَّق. توسل الولد المسكين إليهم وصاح، ولكن ماذا سيفعل وهو وحده أمام حشد؟ عندما تركوه وشأنه أخيرًا، هرب بسرعة الطلقة النارية، وقفز في مركب. أتمنى أن يدمر الشيطان عائلة "دراكاكيس" الوغد. قاد هو وأتباعه المعاتيه الولد إلى الجنون.

كان "لازاروس" يستمع بعينين مغمضتين.

- هل أنت متأكد؟ هل رأوه وهو على المركب؟

- اسمعني يا "لازاروس"، لا تورط نفسك في هذا الأمر. هؤلاء ليسوا بأناس هينين.

- إلى أين اتجه؟

- وكيف لي أن أعرف؟ إلى البحر.

- لماذا لم تقل أي شيء عن هذا طوال ذلك الوقت؟

- بحق المسيح، اسمعني. أتفترض أني أعرف ما عليك أن تفعل من أجل ابنك؟

في اليوم التالي أخذ المركب السريع إلى "بيريوس". ذهب إلى مكاتب الشركة، ولكنهم رفضوا أن يدعوه يدخل من الباب. قالوا إنهم لا يعرفون أي شيء عن "بيتروس"، وأن "دراكاكيس" سافر إلى الخارج ولا يعرفون متى سيرجع. صاح وشتم، فطردوه إلى الشارع.

قال له "بيتروس" ذات مرة أنه سيسكن مؤقتًا مع أصدقاء له في "كاستيلا". لم يكن معه عنوان، ولم تكن لديه فكرة من هؤلاء الأصدقاء، فذهب إلى هناك ماشيًا على قدميه، وبدأ يدور في الشوارع، يبحث كالأعمى، يسأل الناس في الشرفات وفي المتاجر عمَّ إذا رأوا شابًا شكله كذا وكذا، طويل، رفيع، شعره أسود يصل إلى كتفيه. شعر بالإحراج من نظرتهم له، وتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه، ولكن لم يكن بيده أي شيء آخر يفعله. عندما رجع إلى المنزل، تخلى عن كل مهامه الأخرى، وقضى أيامه يدور في أنحاء الجزيرة، من بدايتها إلى نهايتها.

سلك كل الطرق بسيارته، من "إيكو بيي" Eco Bay إلى "بيتيس"، من "فيوتيليتي بوينت" إلى "بوتبريك"، ذهابًا وعودة، من الفجر إلى الليل، يد على عجلة القيادة، والأخرى ممسكة بالهاتف المحمول.

هاتف "بيتروس" مقفول، و"دراكاكيس" اختفى، و"بيتيهاكيس" الشرطي لا يبالي.

- اترك الأمر لي، لقد اتخذت الاجراءات اللازمة، سأتصل بك.

في "تورتوراس" قال له الناس إنهم رأوا شابًا يشبه "بيتروس" عند أرض المعسكر القديمة، هناك عند الشاطئ، حيث يجتمع المتعاطون القادمون من "أثينا". ذهب إلى هناك وتجسس عليهم بمنظاره، لكنه لم يرَ ابنه. شخص ما في "هوستي" سبق ورأى مركبًا مهجورًا في "فيدوسا". أقنع "كارونيس" أن يأخذه معه في مركب الصيد الخاص به، ولكنهم لم يعثروا على شيء. لا في "باربارياان آيل"، ولا "موريي بيي"، ولا ميردريس". شاطئ تلو الآخر، بحثوا في كل الجزر الصغيرة الجرداء، ولكن عناءهم كان هباءً. قال البعض إنهم يظنون أنهم قد رأوا مركبًا قد جره أحدهم إلى الشاطئ، عند "جاليري سليف"، وقال الآخرون إنهم رأوا رجلًا يعبر "أورفانز ستريم" وحده، وذهب إلى "الجزيرة الخارجية". لم يعرف ماذا يصدق، ومن يصدق. كانت أعين من يسألهم تلمع بفرحة قاسية.

بعدها، في "فونيس"، سمع بعض "الفئران" الذين يعملون في تحلية المياه في "ميسكينيا" أن أحدهم كان يقضي وقته في الأعلى عند الكهف الكبير، "كهف التنين"، منذ بضعة أيام. رأوه أكثر من مرة هناك وهم عائدون على المعدِّية الصغيرة من الجانب الآخر، وبعثوا له إشارات ضوء بمرآتهم، فقط ليمرحوا، ولكنه هرب واختبأ في الكهف. سألهم "لازاروس":

- ماذا كان شكله؟ كيف كانت هيئته؟ صغيرًا، كبيرًا، أم ماذا؟

- على الأرجح كان صغيرًا، وطويلًا، ورفيعًا.

- ماذا عن شعره؟ أكان أسود؟ طويلًا؟

- لا، كان قصيرًا جدًا.

- ورأيته بعينيك؟

- أتعتقد أني رأيته بعينيك أنت؟

اليوم التالي ذهب بالسيارة إلى "موجروس"، وتسلق نزولًا صخرة تلو الأخرى إلى الكهف. رأى بالخارج بواقي شعلة نار، وأعقاب سجائر، ومهملات. دخل وصاح، ولكنه لم يعرف إلى متى عليه أن يستمر. يقول البعض إن الكهف يمتد إلى منحدرات "جبل الحرب"، في وسط الجزيرة، ويقول الآخرون إنه يمتد إلى أبعد من ذلك، إلى "الجزيرة الخارجية". رجع إلى هذا المكان في اليوم التالي والذي يليه. في اليوم الرابع فكر أن يأخذ معه بعض المؤن؛ كشافًا، أكلًا، وماءً، وأن يبحث في كل شبر في الكهف، مهما كان عمقه ومهما طالت المدة. كان سيفعل ذلك، لولا خوفه من أن "بيتروس" كان من الممكن أن يظهر في هذا الوقت؛ وقتها ماذا كان سيحدث؟ إذا دخل الكهف كان "بيتروس" سيظهر بالتأكيد.

بالتأكيد.

وبعدها ما الذي كان سيحدث؟

فكر في هذا للحظة. فكر في هذا. فكر فيما سيحدث عندما يكتشف "الفئران" أنك دخلت الكهف تبحث عن "بيتروس"، وفي الوقت ذاته يخرج "بيتروس"، وعندها يضطر أن يدخل مجددًا باحثًا عنك. فقط فكر فيما سيقولون، هذا ما أقول فحسب. ستصبح الخبر الأول والأهم على "قناة الفئران". ولكن لا تبالِ بنفسك، ماذا فعل الولد في حياته ليستحق هذا الاستهزاء؟

كانوا سيؤلفون أغاني شعبية عنا.

أؤكد لك.

كانوا سيؤلفون أغاني شعبية، هؤلاء الأوغاد، الثعابين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشى "لازاروس" وعيناه ثابتتان على الأرض، تتحركان على الأرض معه وهو يمشي. مشى وفكر كيف إذا كانت هذه قصة خرافية، قصة تقشعر لها الأبدان مثل تلك التي يحكيها كبار السن في ليالي الصيف، ليالي مثل الليلة، على سبيل المثال، في الفناء، والمشواة موقدة. دائمًا ما يحكي كبار السن الحكايات على هذه الجزيرة، الفرق أن في هذه الأيام يحكونها لبعضهم بعضًا، حيث لا يوجد أطفال منصتين، فالآن يريد الأطفال أن يخافوا من أشياء أخرى، وهذا تقدم، هذه حرية، هذه مساواة وديموقراطية؛ أن تكون حرًا حتى وأنت طفل أن تختار أي خوف يناسبك أكثر. إذا كان كل هذا ما هو إلا حكاية مليئة

بالعفاريت ومصاصي دماء آكلي الأكباد، وذكور ماعز يضحكون ويتكلمون بألسن بشرية، وأشباح جنود يصيحون، ونيران تشتعل وتنطفئ وحدها في الليالي الأولى من أغسطس، على الجانب الآخر من "سليف آيل". إذا كانت هذه مجرد قصة خرافية، كان سيحمل معه حصى أبيض في جيوبه يرميه وراء ظهره حتى يستطيع أن يعرف طريق العودة. إذا كانت قصة خرافية، إذا كان كل هذا قصة خرافية، إذا كانت مجرد قصة خرافية.

لأن للقصص الخرافية نهايات سعيدة. دائمًا ما تنتهي القصص الخرافية بنهايات سعيدة، أليس كذلك؟ أجل. هم عاشوا حياة رغدة ونحن نعيش حياة أفضل. بالطبع، هكذا تسير القصة.

حمل "لازاروس" الكشاف لأن القمر قد اختفى. قال وهو يمشي:

- تخيل، إذا استمررنا على هذا، قريبًا ما سيصبح هناك راعٍ لكل من يتجول باحثًا عن ابن ضال. سجل لي هذا الكلام إذا شئت. أتمنى لو كان الأمر هكذا بالفعل، أتمنى لو كنت ألبس "كاب" "فودافون" أحمر، أو تيشيرت من "كوزموت" أو "جامبو". أتمنى لو كان لي راعٍ يحضر معه حشدًا، ويقلب الجزيرة رأسًا على عقب، ويدفع المال لمراكب صيد وطائرات هليكوبتر ليبحثوا عن "بيتروس" نهارًا وليلًا؛ وقتها كنا سنجده بالتأكيد، إذا كان لي راعٍ يدعمني، لكنَّا وجدناه الآن.

ماذا باستطاعة أب أن يقدمه لابنه وهو وحده؟

كم من كهف يستطيع أن يدخله؟ كم من مضيق بإمكانه أن يتسلق نازلًا؟ كم من شاطئ مهجور يقدر أن يمسحه؟

تمتم "لازاروس" لنفسه وهو يمشي، بصوت أعلى وأعلى، يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس وحده، أن يقنع الظلام أنه ليس وحده، لأن الحقيقة أنه كان خائفًا تلك الليلة. إنها أول مرة له يدور في الجزيرة على قدميه - في البداية كان يدور بالشاحنة، ولكن لم تكن هذه أفضل طريقة ليبلغ هدفه - والآن هو خائف أكثر من ذي قبل، لأنه كان يرى كنيسة "سيدنا المسيح" البيضاء تتلألأ أمامه، تلك التي بجانبها بئر قديم يختبئ بها، كما يقولون، عفاريت الجزيرة؛ أطفال رضع ماتوا قبل تعميدهم، لديهم أسنان حادة، وشعر مموج، وأجنحة سوداء، وخدود متوردة، وأظافر طويلة صفراء كمنقار طائر الشحرور.

عندما وصل إلى الكنيسة، وقف وأخرج زجاجة "التسيكوديا" من جيب صدريته، وأخذ شَربة كبيرة كي يغسل خوفه. بعدها ركع وأخرج سكينه ذات اليد السوداء، والتي - كما يعرف الجميع - يمكنها أن تطرد الأشياء الشريرة، من غلافها، ورسم بها دائرة على التربة حول قدميه. بعدها أخرج مسدسه بيده اليسرى، وظل راكعًا في هذه الدائرة، ممسكًا بالسكين في يد، والمسدس

في اليد الأخرى. مال إلى الخلف، أخذ نفسًا عميقًا، وبعينين مغمضتين رفع رأسه إلى سماء تثقبها ألف نجمة.

- "بيييتروووووس"!

"بيتراااااااكيس"!

هل تسمعنيييييييييييي؟

صاح مرارًا وتكرارًا، بكل ما يحمله جسده من قوة، كان صوته يشبه العواء عندما يمط اسم "بيتروووووس" وهو يندبه. شعر برجفة تتسلق من رجليه إلى قلبه. تمنى أن يسمع بعد هذا العواء ليس صوت صريخ العفاريت، بل صوت ابنه. يتوسل إلى السيد المسيح أن يرسل له معجزة، الليلة، أو الغد، يتمنى أن تنتهي معاناته، يتمنى أن يرى ابنه مجددًا، أن يمسك بجسده ويضمه إليه، أن يملس على شعره الطويل، وعلى ذقنه غير المحلوق، وأن يقشعر بدنه.

- "بيييتروووووس"!

- "بيييتروووووس"!

أغمض عينيه وحبس أنفاسه؛ تمنى أن يسمع شيئًا. لا شيء. حتى العفاريت هادئة الليلة. نزل على الأرض، ووضع أذنه على التربة. انتظر. عد إلى خمسين، ثم إلى مائة، وأثناء العَد، كل ما كان يسمعه هو صوت بداخله يقول الكلام نفسه مرارًا وتكرارًا كما الفزورة:

"عندما تفقد أباك، يقولون إنك يتيم.

وعندما تفقد زوجتك، يقولون إنك أرمل.

ولكن عندما تفقد ابنك، ماذا يطلقون عليك؟

ماذا يطلقون عليك؟

ماذا؟"

تمتم "لازاروس" الملقب بالقوس لنفسه وهو يمشي قائلًا:

- ماذا يطلقون عليك عندما تفقد ابنك؟ ماذا يطلقون عليك؟ ماذا يسمونك؟ ماذا، ماذا، ماذا، ماذا يطلقون عليك؟ ماذا؟ يا "لازاروس"، يا "لازاروس" أنت محني كالقوس، أيها الكائن المنبوذ المسكين.

رأى وهو يمر فوق غدير "كارديوكافتيس"، ضوءًا صغيرًا يومض على الجانب الآخر، وفي لحظة انتفض قلبه. "بيتروس"، "بيتراكيس". بدأ يرفع كشافه في الهواء. "بيتروس"، "بيتراكيس". ولكن بعدها سقطت يده المرفوعة كورقة الشجر الجافة. لقد كان "بيرولاكيس" الشرطي فحسب، خرج تلك الليلة

ليحرس حقول "فاريباتيس" زعيم المافيا مجددًا. يعمل شرطيًا في الصباح، وحارس بطيخ في المساء، على الأقل في الصيف، ففي الشتاء يحرس البرتقال مقابل ثلاثمائة في الشهر طوال العام.

قال له "بيرولاكيس":

- ماذا بإمكاني أن أفعل وسط الفوضى الذي حلت بنا بسبب الساسة الخائنين؟ ثلاثمائة في الشهر ليست أمرًا يستهان به. ثلاثمائة تشتري لك اللبن وحفاضات الأطفال، على الرغم من صعوبة السهر طوال الليل كمصاصي الدماء، من الصعب أن تدَّعي أن الليل ما هو إلا يوم جديد. ولكني أفضل حراسة البطيخ على حراسة الحشيش، أتفهم قصدي؟ أعني، تحدث كثيرٌ من الأشياء البغيضة هنا، ربما لا تراها بنفسك يا "لازاروس"، لأنك رجل متزن، لأنك رب أسرة، بارك الرب فيك، ولكن رجالًا كثيرين في "أثينا الصغيرة" يفوقون الألبانيين سوءًا. إذا أعطيتهم عينك، سيطلبون منك حاجبك. بالتأكيد أنا لا أحب أن يُقال عليكم إنكم غرباء، ولكنك تفهم ما أقصد. بالتأكيد هؤلاء الكلاب الأوغاد عند أرض المعسكر يفعلون أشياء لن تصدقها. كيف أصبح هذا البلد عنيفًا هكذا يا رجل؟ أعني، في الليالي التي أجلس فيها هنا وحيدًا أتساءل في سري عن كيف انتهى بنا الأمر إلى ذلك؟ كيف أصبحنا فاترين تجاه بعضنا هكذا؟

كيف لا نستطيع أن نتعايش مع بعضنا على جزيرة صغيرة؟ نعيش على أرض حجمها ككسرة الخبز، ولا نكف عن العراك. تسموننا بـ"الفئران" ونسميكم بـ"الأجانب". أتساءل عما إذا كنا دائمًا هكذا، إذا كان كوننا نغش بعضنا ونسرق بعضنا هو ما يربطنا ببعض كل هذه السنين. إذا كانت السرقة والغش والمال المزور هي الأسباب الوحيدة التي تجعلنا نتحمل بعضنا. تلك هي الأشياء التي أفكر فيها عندما أجلس هنا في وقت متأخر من الليل بروح موجوعة، لأني لا أعرف ما الأسوأ، أن تحب بلدك لأنك تمزقها إربًا، أو أن تكرهها لأنك لم تعد باستطاعتك أن تفعل هذا. أفكر الآن - بما أن المال لم يعد موجودًا - علينا أن نجد شيئًا آخر يربطنا ببعض، لكني لا أعرف ما هو، لا أرى أي شيء متبقٍ. لم يعد هناك أي شيء. لا شيء، لا شيء.

تحرك "لازاروس" إلى الأمام، والكشاف مطفأ في يده المتدلية بجانبه كقرن الخروب الجاف. كان كلام "بيرولاكيس" - حارس البطيخ والبرتقال مقابل ثلاثمائة في الشهر - يرن في أذنه. أسرع في خطواته محاولًا أن يترك هذا المكان وراء ظهره بسرعة، حتى لا يراه "بيرولاكيس" وينادي، ويبدأ في نحيبه المعتاد. كلام فارغ، كلام رخيص. كلام فارغ مضطرب. جرعة كاملة من كلامهم الرخيص المتكرر، كما يقول "كارونيس"، لأن الكلام مهم بالتأكيد، ولكن ما يهم أكثر هو قائل الكلام.

سار "لازاروس" وكشافه منطفئ، وفكر مجددًا في كل من قابلهم في طريقه في تلك الليالي التي كان يجر فيها نفسه من أول الجزيرة إلى آخرها. "بيرولاكيس" حارس حقول "فاريباتيس"، و"كريسي" الذي يتجول حافيًا في الشواطئ المهجورة يتحدث مع النجوم، و"جويجويس" الذي طرده أحفاده من بيته ليحولوه إلى نُزُل، و "كامانجو"، و"أسيمويانيس"، والمسنة "باندورا"، و"سيفونيوس"، الذي يركب حصانه لابسًا "بووت" راعي البقر الأحمر. أناس كالأشباح، أو أشباح كالبشر، أشباح يخشون الناس أكثر من خشيتهم الأشباح.

عندما وصل إلى غابة "نوهيا"، أضاء الكشاف مجددًا، ونظر إلى أشجار الصنوبر البعيدة التي تسببت الرياح الشمالية في إمالتها، تعلو جذورها عن الأرض لنصف متر فقط. تبدو من على بعد كالمحاربين المصابين بطلقات نارية في صدورهم، ولكن بدلًا من أن يسقطوا في كومة على الأرض، ظلوا معلقين في الهواء بأذرع مفتوحة، كأنهم قد كُتب عليهم أن يبقوا هناك أبد الدهر؛ مجمدين، معلقين في الهواء؛ لا هم معتدلون ولا هم مستلقون.

مشى ودخل الغابة، ونظر إلى الأشجار، ثم تعمق في الغابة. عندما أشار بيده هنا وهناك، بدا له ضوء الكشاف المتحرك كطائر نهض مفزوعًا من الضوء، يرفرف بين الغصون السوداء، يبحث عن مخرج، يحاول أن يطير بعيدًا، أن يهرب. ولكن كل هذا كذبة، كذبة، لأن الغابة الآن تبدو كرأس "سلاماندر" بعدما أُطلق عليه النار، ووقع شعره كله في ليلة واحدة، حتى شعر حواجبه ورموشه. هذا هو شكل الغابة الآن، كرأس "سلاماندر"، منتوفة جرداء، باستثناء بعض الأشجار المتناثرة هنا وهناك؛ أشجار الصنوبر، وشجر "أربوتوس"، وشجر البلوط، و"البلوط المقدس". لقد أفسدوا المكان مجددًا هذا الشتاء، وحولوا الأشجار إلى حطب للمدافئ ومواقد الخشب.

تحرك "لازاروس" في الغابة المنكوبة، وتمنى لو كان باستطاعته أن يسمع كل الأصوات القديمة.. أن يسمع شكوى طائر المطرقة الصفراء، وصوت طائر النمنمة القاسي، وتغريدات طائر درسة القمح، والأصوات المجنونة التي يقوم بها لطائر القنبرة المتوجة، والتغريدات المتقطعة لطائر القمرية. وفوق كل هذا، فوق كل هذا، صوت الطائر الأسود الجميل.. إذا كان للمواساة صوت، لكان صوت الطائر الأسود بلا شك.

تعمق "لازاروس" داخل الغابة، ينظر إلى الأعلى، عيناه وأذناه مفتوحتان، لكنه لم يسمع شيئًا، سمع الأوراق فحسب وهي تُطحن كغضاريفه في حذاء "البووت" الخاص به، وكصفير نفسه، ودق قلبه.

عندما خرج من الجانب الآخر، حيث بداية مصعد "ساكاند كامينج"، استدار إلى اليمين، وتوقف عند حافة المضيق، ونظر إلى البحيرة الممتدة أمامه. نظر بصمت إلى المياه السوداء المتوهجة كما لو كانت قد ابتلعت قليلًا من ضوء

القمر، وإلى الأعشاب التي تردد صدى نقيق الضفادع، وإلى الطين الذي يبدو لونه أحمر في الظلام، وكأن التربة قد عُجنت في الدماء.

- "بيييتروووووس"!

"بيتراااكيييس"!

صاح "لازاروس" في هذه الأرض القاحلة، مرارًا وتكرارًا، صاح حتى بدأ كلبا الخوف والقلق ينهشان صدره بلا رحمة، صاح حتى اتسعت رئتاه، صاح وهو يعرف أن رياح الشمال القاسية ستأخذ صوته، وتلعب به لبعض الوقت، ثم تكسر رقبته، وتخنقه ببطء، وبلطف، وبنعاس.

ولكن "لازاروس" لم يكف عن الصياح. هو يحب اسم ابنه لهذه الدرجة.

- "بيييتروووس"!

- "بيتراااكيس"!

نزل "لازاروس" على ركبتيه وهو مرهق، يسعل ويلهث كالكلب العجوز المصاب بالربو، ووضع أذنه على التربة الصلبة، وبعينين مغلقتين انتظر ليسمع شيئًا ما. ليس شيئًا ما، بل شخصًا ما. ليس شخصًا ما، بل "بيتروس". إذا ذهب إلى "كهف التنين"، وإذا امتد الكهف - كما يقولون - إلى كيلومترات أسفل الجزيرة، وإذا كانت الجزيرة - كما يقولون - جوفاء في بعض الأماكن، هذا يعني أن في مرحلة ما، سيكون بإمكانه أن يسمعه. إذا كان، إذا كان، إذا كان. كثيرُ من "إذا كان". سأجيبك أن "إذا كان" هي ما جعلت البشر بشرًا، أنها هي التي تجعل الأرض تدور. إذا كنت فقط تصدق ما تسمعه، فلن تسمع أبدًا الأشياء التي تصدقها. ستسألني ما شأني - وأنا صاحب حانة - بكل هذا الكلام. ستقول لي: "يا لازاروس، كفاك والحكم الشعبية، أحضر لنا زجاجة جعة باردة"، وسأقول: "إذا لم يكن الأصم شديد الصمم لدرجة أنه لا يسمع من يقول له إنه أصم، لكان عدد الصُم في العالم أقل. الآن خذ رشفة من هذه الجعة".

"أين حذلقتك الآن؟

كلامي أسكتك، أليس كذلك؟

إذا كنت أصم، كيف بإمكانك أن تتكلم؟".

كل الـ"إذا كان" جيدة، فقط واحدة تخيفني.

إذا فقدت أباك يقولون إنك يتيم. إذا فقدت زوجتك يقولون إنك أرمل. ولكن إذا فقدت ابنك، ماذا سيطلقون عليك؟

هذا هو الشيء الوحيد الذي يخيفني.

إذا فقدت ابنك، ماذا سيطلقون عليك؟

إذا.

ماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتربت الساعة من الرابعة. باقي ساعتين على بزوغ الفجر. رأى "لازاروس" من "مضيق القاتل" "الأركادي" وهو يلهث نافخًا، ولكنه لم يتوقف لينظر. ما زال لديه طريق طويل يسلكه، واحتاج أن يصل في وقته، احتاج أن يصل إلى أعلى "كهف التنين"، حتى يرى الشروق، لأنه لا شك في أن مشاهدة الشروق شيء جميل. هو أمر جميل أن ترى بداية يوم جديد. ضوء الشمس يجلب الأمل، مهما كان كم الظلام الذي تملكه بداخلك. بالإضافة إلى ذلك، كما قال "كارونيس" الأبله منذ أيام، علينا أن نؤمن بالشمس ليس فقط لأننا نراها، بل لأنها هي التي تجعلنا نرى كل شيء.

بدأ "لازاروس" يعرج وهو يمشي، كانت خطواته عنيدة، وعيناه ثابتتان على الأرض، تتحركان معه على الأرض وهو يمشي، وكان حذاء "البووت" الخاص به مغطى بطين أحمر. لم يرد أن ينظر له، لأنه بدا وكأنه يمشي مجددًا في حقول مغطاة بالدماء. عرج "لازاروس" وهو يمشي، أراد أن يصل في الوقت المناسب ليرى الشمس وهي تصعد من ناحية البحر. سمع صوتًا بداخله يقول إن اليوم الذي على وشك أن يبدأ سيكون يومًا لا يُنسى، شيء ما سيحدث هذا اليوم. "سترى، اليوم سترى الخير وهو يأتي من البحر، اليوم سترى "بيتروس" مجددًا، وعندما تراه ستسرع إليه وتحتضنه، ستعتصره بقوة حتى تسمعه وهو يطلب منك أن تكف عن عصره لأنك تؤلمه، لكنك لن تبالي، ستعتصره وتقبله فحسب، وتستنشق رائحته، وتتحسس ذقنه غير المحلوقة، وشعره الطويل، هكذا سيكون الأمر".

عرج "لازاروس" إلى الأمام، وحاول أن ينسى الإرهاق والألم. كان متعبًا ومنهكًا من المشي كل هذه الساعات، أصبح حذاء "البووت" الخاص به غامق اللون، وتورمت قدماه، وشعر وكأن له أربعة أقدام، قدمين في كل فردة. بدأ عرقه يتصبب، ثم بدأ يبرد مجددًا، وأصبح كل ما يحمله حِملًا شديد الثِقل. أراد أن يتخلص من الحِمل كله، فقط إذا كان يجرؤ أن يتخلص من ملابسه، ومسدساته، وسكاكينه. بعد أن يتخلص من حمله، كان ليجري بخفة وهو غير مسلح، وعارٍ كما لو كان قد أصبح في الثمانية عشر من عمره مجددًا، كان ليجري مثل "بيتروس". "يا رجال، تعالوا، انظروا، "لازاروس" المعتوه تجرد من ملابسه، وأصبح كما ولدته أمه، وتشاجر مع الفئران! تعالوا وانظروا، لقد لبسته الشياطين، ولم يتركوه منذ ذلك الحين!"

عرج "لازاروس" وهو يلتقط أنفاسه. عرج إلى الأمام وكله ندم، لأنه بدأ يعتقد أنه كان مخطئًا عندما صدَّق ما قاله له ساكنو "فونز" عن "كهف التنين"، وأنهم بالتأكيد كانوا يكذبون. هؤلاء الأوغاد قاموا بخداعه، والآن هم جالسون في مكان ما يضحكون عليه. لم يختبئ "بيتروس" في أية كهوف. ليس ابنه بـ"فأر". لا يتسلل ابنه ليختبئ في الفجوات والكهوف. لم يربِ ابنه على هذا. هو بالتأكيد قد أخذ مركبه إلى جزيرة مهجورة نائية، وقرر أن يظل هناك لبعض الوقت حتى يصفو ذهنه، حتى يفكر، ويجمع شتات نفسه. هذا ما حدث بالتأكيد. ربما تسأل، وما الذي يفعله طوال اليوم في هذا المنأى؛ ولعدة أيام؟ وسأقول لك إنك لا تعرف شيئًا. أنت بالكاد تجمع اثنين زائد اثنين. أنت مثل هؤلاء الحمقى، بمخ ذبابة وقلب ثعبان.

أصدقت بالفعل قصص "اسمعني" الخرافية؟ القصص التي خدعك بها هذا "الفأر"؟ أصدقت حقًا أن "بيتروس"، ابني "بيتروس"، الذي يبلغ طوله مترين، القوي مثل الثور، سيجلس هادئًا ويسمح لـ"دراكاكيس" الأبله أن يقص شعره ويقوم بإذلاله أمام الجميع؟

لقد كذبوا عليك، ألا ترى؟ العكس هو الذي حدث. هو بالتأكيد رآهم يفعلون هذا مع شخص آخر، ففار دمه وطارد هؤلاء الأوباش وأبرحهم ضربًا، ثم أخذ المركب إلى مكان يستطيع فيه أن يمكث وحده، حتى يهدأ، حتى يصفي روحه من كل هذه الكراهية. ستسألني عما يأكل ويشرب. هو يأكل سمكًا يصطاده بنفسه، ويشرب ماءً قد أحضره معه في المركب، وينام كالطفل الرضيع، كعصفور صغير على مركب، تهزه الأمواج بلطف حتى النوم.

أتذكر ما كنا نغني في البحرية؟

"أنا الملاح

ملاح بحر "إيجة"

الموج سريري

وقلبي يضخ نارًا

لأرضنا المجيدة

سأواجه كائنات

البحر الواسع المظلم

والرياح والعواصف

وأنتظر بفارغ الصبر

أن يحين الوقت

الذي نحارب فيه بجسارة

عدونا المكروه".

أغمض عينيه للحظة، وحاول أن يتخيل كيف سيكون الأمر. كيف سيشعر وهو يرى "بيتروس" قادمًا من البحر. سيأتي من البحر، هذا هو الشيء المؤكد الوحيد. سيأتي الخير من البحر، بذقن غير محلوقة، بشعر أشعث، بعينين حمراوين من الأزمة القلبية، والهواء المالح، وقلة النوم. لن يقول "لازاروس" أي شيء. لا شيء، لا شيء على الإطلاق. سيحتضنه فحسب، ويعتصره، ويستنشق رائحته، ويقبله قبلات لا حصر لها، سيقرص خديه، ويملس على شعره الطويل، ويقبله مرارًا وتكرارًا في فمه، وخديه، وعينيه. هكذا سيكون الأمر. سيأتي "بيتروس" من البحر. بالتأكيد. هذا هو الأمر المؤكد الوحيد. هذا فحسب. سيأتي من هناك بالتأكيد.

سيأتي الخير من البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرج "لازاروس" إلى الأمام بكل ما لديه من سرعة، ولكن لسانه كان يتحرك أسرع من قدميه، يغني الأغاني العسكرية، ويسب، ويصلي؛ كان يدور كالعجلة.

- كل هذا كذب، أتسمعني؟ كذب. لم يكن ليدعهم يلمسون شعرة في رأسه، أنا ربيت الولد، وأعرف ما أقول. لم يكن ليدع أحدًا يقول له ماذا يفعل. هو على الأرجح ضربهم جميعًا كما الطبول، ثم أخذ المركب وذهب إلى شاطئ مهجور ليهدأ قليلًا؛ ليصفي ذهنه. هذا ما حدث.

عرج "لازاروس" إلى الأمام بأقصى سرعة يملكها لكي يصل إلى "كهف التنين" في الوقت المناسب، ليرى الشمس وهي تطلع، كبيرة وقوية ولونها أحمر.

- كل هذا كذب. أتعرف؟ أنا لا أبالي ماذا يطلقون على من يفقد طفله، أنا لا أكترث على الإطلاق. أنا أرمل، ويتيم، بالتأكيد، ولكني لست هذا الشيء الآخر، مهما كان ما يسمونه. أنا لست هذا الشيء. أنا لم أفقد ابني، هو كان ظرفًا مخيفًا فحسب، ظرفًا أفقدني السيطرة، ولكنه سيمر. ربما اليوم! أعرف أن كل شيء على ما يرام. كل شيء على ما يرام. هو ولد فحسب. رجل. يفعل أشياءَ مجنونة أحيانًا. أتعتقد أننا لم نكن نتصرف مثله ونحن في سنه؟ كل شيء على ما يرام، صدقني. كل شيء على ما يرام. هو كان حلمًا فحسب، والآن انتهى، كرؤيتك سمكة ميتة في المنام وظنك أنه فأل سيئ. ولكن الآن كل شيء على ما يرام.. كل شيء على ما يرام.. كل شيء على ما يرام. على ما يرام. علينا أن نغتنم الفرصة، انتظر حتى يأتي "بيتراكيس" ابني، سنقيم حفلًا كبيرًا لم تره من قبل، وسيمر علينا "الفئران" من الخارج ويحدقون بنا

بأفواه مفتوحة. إلام تنظرون أيها الأوغاد؟ إلام تنظرن أيتها الساقطات؟ ادخلوا لو تجرؤن! تعالوا! نحن أيضًا لدينا واقيات جنسية، ولكن الواقيات خاصتنا ليست معبأة بالماء. هيا، اخطوا إلى الداخل، ادخلوا! "بيتروس"، يا بني، اذهب وأحضر الواقيات، لقد جاء الشباب من أجل التدريب على التصويب.

تعالوا أيها الأوغاد. تعالين أيتها الساقطات.

توقف "لازاروس" عند مفترق الطرق بين "فجوة الوحش" و"موجروس"، وانحنى ليلتقط أنفاسه. كانت ساقاه في تلك اللحظة ثقيلة كساقي الفيل. تصبب العرق ونزل على عينيه، عرق ساخن، مر، أصفر. جالونات من "التسيكوديا"، وأطنان من "النيكوتين". لم يتبق إلا القليل. ساعة فحسب. بعدها سيرتاح نهائيًا. تشجع، لم يتبق إلا القليل. تشجع.

بعد ساعة سيحل الفجر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا نظرت إلى الأسفل من قمة الصخرة، على ارتفاع مائتي قامة فوق البحر، لوجدت الكهف المختبئ خارج مجال رؤيتك. عليك أن تمشي في مسار به أعشاب برية، حتى تصل إلى منتصف المنحدر، ثم تعبر المضيق المظلم، وبعد ذلك، عندما تخرج من الناحية الأخرى، عليك أن تتسلق نازلًا عشرين قامة أخرى، حتى تصل إلى فم الكهف الأسود المفتوح بين صخور كبيرة حادة. عليك أن تختار يومًا هادئًا إذا أردت أن تنجح في كل هذا، لأن وجه الصخرة مكشوف للرياح، وعندما تهب الرياح بشدة لا تترك صخرة في مكانها.

دخل "لازاروس" الكهف ثلاث مرات في الأيام القليلة الماضية، وكل مرة بصق دمًا وهو ينزل إليه، ثم وهو يصعد مجددًا. كان يشعر بالدوار والخوف، وكانت يداه مكشوطتين. أحيانًا كان يظن أن عظامه هي ما سيتبقى منه هناك عند الصخور، وبالرغم من ذلك، كان ليتسلق نزولًا مجددًا هذا اليوم إذا كان هناك ما يدعو لفعل ذلك. ولكن ما من شيء يدعو لذلك. انتهى الأمر. كل شيء واضح، لا فائدة من الكلام في هذا الموضوع مجددًا. سيأتي "بيتروس" من البحر، لا الكهف. هذا ما سيحدث بالتأكيد.

أعرف ذلك.

نظر إلى الجرف الأسود الذي يتثاءب تحت قدميه، ثم خطا إلى الخلف وجلس، وخلع حذاء "البووت" الخاص به وجوربه. أرخى جراب سكين الصيد الخاص به من بطن ساقه، وأخرج المسدس من حزامه، وخلع صدريته وقميصه. وضع كل هذا على الأرض، بالإضافة إلى عصا المشي والكشاف، وفرد ساقيه المكدومتين المتورمتين. استلقى على ظهره على الصخور

المبتلة، وشعر برعشة منعشة تنتشر في أطرافه. رفع ساقيه في الهواء، وبحركة سريعة مفاجئة، خلع بنطلونه وملابسه الداخلية معًا. أصبح عاريًا. فرد ذراعيه وساقيه، وأغمض عينيه، وترك جسده ليهدأ، ليسترخي، ليتنفس.

ابتسم حين داهمته فكرة أنه حين يأتي "بيتروس" على مركبه، سيرى رجلًا صغيرًا على مسافة كبيرة منه، عاريًا تمامًا، يقفز فرحًا، ويلوح بذراعيه من فوق صخرة.

سيحل الشروق في أية لحظة الآن. عرف ذلك من الرياح الشمالية التي تشتد قوتها بالتدريج، وتتسبب في حدوث بعض الأمواج، حاملة معها رائحة الزعتر والمريمية والروزماري إلى الأعلى حيث يستلقي. جعل هذا العبق أنفه يرتعش، وقلبه ينبض بسرعة أكبر، لأنه ذكره بأيام خوالي. أيام بطولية، أيام كان يشعر فيها بالثقة وبالقوة؛ الثقة بأنه سيصبح رجلًا مهمًا، ليس لا شيء؛ رجلًا مكتملًا، لا نصف رجل. رجلًا لا يعرف كيف يقول إنه خائف أو إنه لا يستطيع، رجلًا كافح ليجعل الحياة تخضع له بدلًا من أن يخضع هو لها. رجلًا مكتملًا لا نصف رجل.

قال "لازاروس" وهو ينظر إلى الضوء الطفيف الذي بدأ يتوهج من على بعد خلف السحب البيضاء:

- نحن على ما يرام. لقد كان موقفًا يدعو للخوف، ولكنه سيزول. إذا كنا قد قلنا أشياءَ موجعة لبعضنا بعضًا، فلا بأس، نحن رجال. لقد فعلت هذا من أجلك. حتى لا ينتهي بك الأمر وأنت مثل هؤلاء الضئيلين الذين يضيعون حياتهم وهم يلتقطون قروشًا، لأن ليست لديهم الجرأة أن يسعوا وراء المال الحقيقي. إذا أردت أن تسعى وراء المال الحقيقي، عليك أن ترافق أولئك الذين يعرفون كيفية الحصول عليه. فعلت ذلك من أجل مصلحتك، أتسمعني؟ حتى لا تعيش حياة مليئة بالكراهية. فعلت ذلك من أجلك. أتسمعني يا "بيتراكيس"؟ أنت نور حياتي، أنت حياتي، أتسمعني؟

نهض ووقف على قدميه، ونظر مجددًا تجاه حافة الجرف، يقيس الظلمة بينه وبين الظلمة المنتشرة بالأسفل.. التوَت ركبتاه، وشعر بشيء يرتعش بداخله، في الأسفل، بين ساقيه. خطا إلى الخلف وجثا على الصخرة، وقرر أن ينتظر قدوم اليوم الجديد هكذا: عاريًا، راكعًا على ركبتيه.

- ربما كنت مخطئًا. أتسمعني يا "بيتراكيس"؟ يا "بيتروس"، يا "بيتراكيس"، يا ولدي الطيب. أتسمع ما أقوله لك؟ ربما كنت مخطئًا. ربما كانت هناك طريقة أفضل، طريقٌ مختلفٌ. ربما ستجد هذا الطريق المختلف وتتبعه. ربما قد فعلت ذلك بالفعل. ارجع يا بني، ارجع وافعل ما تريد. أقسم لك أنني لن أملي عليك ماذا تفعل أبدًا بعد الآن. ارجع وقل لي إني عجوز معتوه مجنون وسكير، وإني مجرد صاحب حانة. ارجع وقل ما تريد، اشتمني إذا أحببت، قل لي إني

حثالة. ما يهم هو أن ترجع. أريد أن أراك مجددًا يا "بيتروس" يا بني، هذا هو كل ما أريد. عندما تكون معي ينبض قلبان في صدري، وفي غيابك صدري خاوٍ. "بيتروس"، "بيتراكيس"، يا ولدي الطيب. عد إليّ. عد يا نور حياتي. "بيتروس"، يا بني، عد إليّ.

توسَّل "لازاروس" وهو على ركبتيه، وتمتم لنفسه وعيناه واسعتان، ويداه تحتضنان ذراعيه. تمتم حتى أصبح صوته مجرد همس، حتى اختفى. طار صوته هو الآخر بعيدًا، مع الرياح الشمالية التي ما زالت تستجمع قوتها.

طلع النهار، وحدق "لازاروس"، وهو عارٍ، بعينين واسعتين، في الشمس وهي ترتفع في الأفق كطرف إصبع يرفعه طفل رضيع عملاق باستحياء إلى السماء، رضيع آتٍ من عالم آخر، يرفع إصبعه ليلمس للمرة الأولى - وهو مليء بالتحسب والحماسة - سحب الشرق التي تتقلب ألوانها من الأبيض إلى الفضي والأصفر، ثم إلى البرتقالي والأحمر، فتصبح سحبًا لونها أحمر داكن، سحبًا مهولة تبدو وكأنها لم تولد من الماء، بل من بحر لا نهائي من الدماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في التاسع من يوليو عام 1956، ضرب جزيرتنا أكبر تسونامي رآه بحر "إيجة". قال أبي إنه يتذكر اليوم جيدًا؛ على الرغم من أنه في عام 1956 لم يكن قد وُلد بعد. حدث الزلزال في جنوب "أمورجوس"، في الخامسة صباحًا، بمقدار 7.5 على مقياس ريختر. بعد ساعة اصطدم التسونامي بـ"الجزيرة الداخلية" بسرعة ثلاثمائة كيلومترات في الساعة، ودمر كل ما بطريقه، ابتداءً من الأعلى عند "كهف التنين"، نزولًا إلى "بوت بريك". بلغت الأمواج في "هوستي" 25 مترًا، وزحفت كيلومترًا كاملًا على الأرض حتى وصلت إلى مجرى "الرجل المشنوق". مراكب الصيد، والبيوت، والحقول؛ كل هذا اختفى. لمدة ثلاثة أيام كاملة تغير لون البحر من الأزرق إلى الأحمر والرمادي. والناس - الذين كانوا يعيشون في عصور الظلام ولم تكن لديهم فكرة عن ماهية التسونامي، أو عوامل التعرية تحت الماء، أو الأعماق الضحلة - تسلقوا إلى قمة "جبل الحرب"، واختبأوا في الكهوف، وركعوا على ركبهم يطلبون العفو من الرب، لأنهم كانوا على يقين أن "ساكاند كامينج" على وشك أن تتكون.

قال أبي:

- أتذكر الأمر كله كما لو كان البارحة. كانت هناك علامات وقتها، وهناك علامات الآن أيضًا. كانت هناك عديدٌ من العلامات وقتها، وهناك علامات أكثر الآن. إذا رأيت نارًا كبيرة تحترق بجانب البحر، وأناس يحاولون أن يحصلوا على أي شيء في وسط الحطام المتفحم، ستعلم بالتأكيد أن النهاية قد اقتربت. وإذا رأيت سلحفاة بحرية وقد دخل مسمارٌ في رأسها وخرج من أول

رقبتها، فلم تمت في التو، بل ببطء وبعذاب من شدة الجوع، ستتأكد أن النهاية اقتربت. إلا إذا.. إلا إذا..

قال هذا وهو يبتسم ويغمز لي.

- أنت تفهم.

- بالتأكيد، أفهمك جيدًا، أفهمك بوضوح، لا يفهمك أحد مثلي.

- برافو! هذه هي فتاتي، تعالي إلى هنا وسأقبلكِ، مرة، سأقبلكِ بعدد ورقات زهرة البرسيم. مرة واثنتان وثلاث، وأربع مرات. فهمتِ هذا أيضًا، أليس كذلك؟ أنت ذكية مثل الثعلب يا فتاتي.

هل قبلك أحد عانى من جلطة من قبل؟ أليس أمرًا غريبًا؟ الفم الملتوي، اللعاب الأبيض، ورائحة النفس التي تشبه رائحة أقراص الدواء ورائحة شيء يحترق. الفم، هذا هو أصعب شيء. يُتطلب منك فن حقيقي أن تُقبِّلي بفم ملتوٍ، أن تقفي على النحو المضبوط أمام فم ملتوٍ يريد أن يقبلك أكثر مما يريدُ أي شيء آخر.

أيقظني صياحه تلك الليلة. كان يجلس في سريره، يحمل مسمارًا طويلًا في يده السليمة؛ يده اليمنى. تجمدت في مكاني. قلت لنفسي إنه الآن سيبلعه، أو يدخله في إحدى عينيه وسينتهي الأمر على هذا. ستسألني أين وجد هذا المسمار؟ أنا لا أعرف، حقًا لا أعرف. هو حتى لا يستطيع أن يقوم من سريره وحده. ترى أين وجده؟

أشار لي بيده أن أقترب. بدا في الضوء الخافت شاحبًا ورفيعًا، كما لو كان قد مات بالفعل.

قال لي:

- لا بأس، نحن أنقذناها. لحسن الحظ لم يؤذ المخ. دهنتها مطهرًا مضادًا للماء. هي ما تزال مصابة بالدوار، ولكني أعتقد أنها ستصمد، على الرغم من شدة الألم الذي تعاني منه، وعلى الرغم من المعاناة. عمومًا، أنا متفائل. ستصمد.

رفع المسمار فوق رأسه ونظر إليه، ثم وضعه في راحة يدي وقبض يده على يدي.

قال لي:

- احتفظي بهذا، هو شيء يذكرك بي. تذكري كيف حاربت حتى النهاية، كيف حاربت لأحمينا من النهاية. تذكري هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الطائرات الورقية في يوليو

- تُرى ما الذي يجعل أقواس قزح مقوسة؟

رفعت "أرتيميس" ذراعها، وبإصبع واحد مفرود تعقبت منحنى قوس قزح الذي بدا وكأنه يمتد من "ناكسوس" إلى "أمورجوس" وأبعد. كان المطر قد توقف منذ قليل، وما يزال البحر مزبدًا، وبدأت السماء تظلم مجددًا من ناحية الغرب.

كررت سؤالها:

- ما الذي يجعلها مقوسة؟

قال لها "ستافروس":

- هيا بنا، فلنخرج من هنا. يبدو لي أنها ستمطر ثانية.

وقف وحاول أن ينفض ذرات الرماد الداكنة من على ساقيه. رائحة شيء يحترق في الهواء. بالكاد صدق ما حدث. حتى بعد يومين ما زالت رائحة الاحتراق تملأ الهواء. أحسنوا صنعًا هؤلاء "الفئران". هم بالفعل خبراء حقيقيون. كل شيء أصبح رمادًا، لم يتبق شيء في مكانه. فقط الجدران، التي ستقع هي الأخرى ما إن تأتي الأمطار الحقيقية في الشتاء. أعني، لقد كانت هذه بعض الأمطار الصيفية فحسب، وعلى الرغم من ذلك فقد جرفت الركام معها إلى البحر. بعثرت المياه أشياءً متفحمة في كل مكان، وجرت سوداء بين الصخور. حتى الهواء رائحته محروقة. بالكاد صدق كل هذا.

بالكاد صدق كل هذا.

نظر إلى "أرتيميس" وهي تجلس على صخرة، ما زالت تتبع قوس قزح بإصبعها. فكر أن يقول لها إن هذا الفعل يجلب الحظ السيئ، ولكنه عرف ماذا سيكون ردها، فظل صامتًا. كانت قد وضعت بعض زجاجات الخمر قرب قدميها؛ لسبب ما لم تنفجر الزجاجات تحت تأثير النار. عثرت على أشياء أخرى أيضًا بعد أن حفرت في الأنقاض. أشياء جديدة، أشياء قديمة، أشياء اشتروها خصيصًا للمطعم، وأخرى أحضروها معهم من أثينا. مثل اللوحة التي كانت معلقة قرب الباب، بها عفريت طويل ورشيق يلبس ملابس ألوانها فاقعة، كـ"الجوكر" في لعبة "الكوتشينة"، يقفز وهو يعزف الناي، ومجموعة من الفئران تتبعه. وطاحونة هوائية تبدو شفراتها كالطيور البيضاء، وعروس بحر برونزية اللون تجلس على صخرة، ومصباحان كل منهما على شكل منارة، وطوق نجاة برتقالي مكتوب عليه بحروف بيضاء "عرائس البحر مرحب بها". كانت تلتقط أشياء من هذا القبيل من وسط الركام، متعلقاتهم الخاصة، سوداء، مشوهة.

قال لها:

- جاهزة؟ هيا بنا.

تسلق نازلًا إلى البحر، صخرة تلو الأخرى، ثم غسل يديه، ووقف ينظر هو الآخر إلى قوس قزح. كان هائلًا بالفعل. أغلق عينه اليمنى أولًا، وبعدها أغلق اليسرى، لأنه قد سمع من قبل أن أقواس قزح تبدو مختلفة عندما تنظر إليها بأعين مختلفة.

بدت له كما هي، لم يختلف شيء.

عندما صعد راجعًا إلى حيث تجلس "أرتيميس"، وجدها تدخن سيجارة، وتحدق بعينين محولة إلى الدخان الأبيض السميك الخارج من فمها. كانت مغطاة بغبار أسود. كان على خديها، وذراعيها، وساقيها، وكاحليها. لون قميصها وتنورتها وصندلها كان أسود من تأثير الرماد. بدت وكأنها عاملة في منجم.

- انهضي، هيا.

- لا. اذهب إلى المنزل، وأحضر الطائرة الورقية.

- هيا، انهضي!

- لا. أريد الطائرة.

حدقوا في بعض كما تحدق القطط.

قالت له "أرتيميس":

- أرجوك، أسدِ لي معروفًا. أستفعل هذا من أجلي؟ ألم تعد تحبني؟

أحرقته عيناه. دعكهما بإبهاميه، فزادت الحرقة. جاءت نسمة هواء، فرفرف شعر "أرتيميس" كالعلم المقطوع. أبعدت شعرها عن عينيها بيد واحدة، تاركة بصمات سوداء على جبهتها. بدت كعاملة منجم. عاملة منجم، أو هندي مدهون بطلاء الحروب.

سمعها تناديه وهو يتوجه إلى السيارة. كانت تمسك زجاجة خمر من عنقها، وتلوح بها في الهواء.

صاحت قائلة:

- أحضر معك شيئًا نفتح به هذه أيضًا! أريدنا أن نسكر الليلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اعتادا الأحلام. كانا يسرحان في البحر ويحلمان. لهذا قررا أن يسميا المكان "سيأتي الخير من البحر". لم يريدا المكان أن يكون مطعمًا معتادًا. لم يريداه

حتى أن يكون مجرد مطعم. لم يعرفا ماهية المكان الذي أرادا أن ينشئاه، فقط عرفا أنه عليه أن يكون شيئًا مختلفًا، شيئًا فريدًا. استغرقا في الأحلام وكانت لديهما أفكار كثيرة. لم يحلما بتحقيق أشياء لنفسيهما فقط، بل لغيرهما أيضًا. لم يستطيعا أن يغيرا العالم، ولكن على الأقل كانا باستطاعتهما أن يغيرا قطعة صغيرة منه.

سألت "أرتيميس" "ستافروس":

- أتعرف من نحن؟ نحن عالم صغير. أتذكر في مرة حين قلت لي إن معظم مساحة العالم مغطاة بالماء، وإن لهذا علينا أن نسميه "كوكب الماء" بدلًا من "كوكب الأرض"؟ نحن هكذا. نحن كوكب صغير. نحن نشبه أيضًا تلك القصة الخرافية عن القرية التي اجتاحها الفئران، فجاء في يوم رجل يرتدي ملابس ملونة، ومعه ناي سحري، وبدأ يعزف الناي، فسحر الفئران، وتتبعته إلى عمق البحر حتى غرقت. نحن هكذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صرفا علاوتيهما على الترميمات. كان مجرد مطعم سمك قديم يطل على الماء، يقع بين "أجياثالاسا" و"باراديسيا"، اشتراه عم "أرتيميس" الألماني منذ بضعة سنين بسبب موقعه. كان ينوي أن يهد المطعم ويبني مكانه منزلًا صيفيًا. ولكن زوجته الإيطالية - والتي قد أنجبت طفلين من زواجها الأول - جعلته يشتري فيلا في "ساردينيا"، في مكان اسمه "كوستا سميرالدا"، يسكن فيه "بيرلوسكوني" و"نيارخوس"، ويباع فيه الآيس كريم بعشرين يورو. لهذا ظل المطعم في مكانه، مهجورًا، متآكلًا من الجو وملح البحر.

اتصلت "أرتيميس" بعمها في ألمانيا في الشتاء السابق، عندما قررا أن ينتقلا إلى الجزيرة. أسعد الخبر عمها، وأخبرها أن تأخذ المفاتيح، وأن يقيما هناك متى يريدان. ولكنهما لم يريدا مكانًا للإقامة. قد وجدا بالفعل مكانًا صغيرًا ورخيصًا في "أثينا الصغيرة". كانا يبحثان عن مكان يقيمان فيه مشروعًا. احتاج عمها وقتًا ليفكر في هذا الموضوع. هو رجل منهجي، كل شيء عنده له نظام، ولا يأخذ قرارات طائشة. قال لها:

- أعطيني مهلة أشاور عمتك "موريتا".

عم "أرتيميس" مدير شركة دواء. دمه يوناني، وعقله ألماني، وزوجته إيطالية. يتزلج على الجليد في جبال الألب، ولديه فيلا ضخمة في "سردينيا"، ويسافر من أجل العمل إلى بكين ولندن ونيويورك. كان رجلًا عالميًا حقًا.

بعد أسبوع تكلموا مرة على "سكايب" ليتفقوا على التفاصيل. كتبوا عقدًا مدته سنتين، بخمسمائة في الشهر دون مقدم. عليهما أن يدفعا الإيجار بدءًا من سبتمبر، فالثلاثة أشهر الأولى تنازل عمها عن الإيجار من أجل الحظ السعيد.

تحمست "أرتيميس" بشدة، ولكن "ستافروس" لم يعجبه الأمر على الإطلاق. لم يعجبه عمها هو الآخر، كان يراه أحد الرجال الذين يتغير اسمهم من "رافاييل" لـ"جافاييل" دون أن يراجعوا أنفسهم. هو أحد اليونانيين الذين أصبحوا ألمانًا أكثر من الألمان نفسهم. كان سماعه يتحدث فحسب كفيلًا لكي يشعر "ستافروس" بالغثيان.

عندما اتصل "رافاييل" بهما، كان يقول لـ"ستافروس" عبر الهاتف بلهجة ألمانية:

- أللو، يا "ستافجوس". أنا عمك "جافاييل" أتكلم من "شتوتجارت".

ثم يتحدثان لدقيقة قبل أن ينده "ستافروس" "أرتيميس" لتأخذ الهاتف.

ينده "ستافروس" "أرتيميس" بلهجة ألمانية مقلدًا عمها:

- "أكتيميس"، تعالي هنا من فضلك. إنه عمك "جافاييل" من "شتوتجارت"!

ثم تأتي "أرتيميس" مسرعة في خجل، وتقرصه كي يكف عن التهكم.

لم يحب "ستافروس" "رافاييل" على الإطلاق. كان رجلًا ألمانيًا أكثر من الألمان نفسهم. دائمًا ما كان يقول لـ"ستافروس":

- كل الناس هنا.. كلكم هنا.. تحتاجون أن تتعلموا كيفية العمل. أن تكفوا عن البكاء على اللبن المسكوب وتقفوا على أرجلكم. ما من أحد يدين لكم بشيء. أتعلم على من يقع اللوم؟ أسلوبكم الرجعي. مائتا عام مضت وما زلتم لم تقرروا ما إذا كنتم تريدون أن تكونوا أوروبيين أم لا. أعني، من تحسبون أنفسكم؟ جديًا، من؟

كانت عنده نظرية. من وجهة نظره، اليونان قد ارتكبت الجريمة الكاملة عبر السنين القليلة الماضية. الجناة الحقيقيون: هم الساسة. الجناة المعنويون: هم الناخبون. الدافع: هو شراء ضمير الشعب. السلاح: هو المال؛ العملة الأجنبية، عملة السوق السوداء، المال السهل. الضحية: هو البلد.

هذه هي نظريته باختصار. وعلى الرغم من رغبة "ستافروس" العارمة في الرد عليه مستنكرًا، فإنه دائمًا ما كان يمنع نفسه.

أراد أن يقول له "فلتسدِ لنا معروفًا وتذهب إلى الجحيم يا عم رافاييل". الكل يوجه أصابع الاتهام إلى هذه الجريمة وتلك الجريمة، وكأن للألمان الحق في أن يتحدثوا هكذا. كف عن حديثك المعتاد عن أوروبا. أوروبا فقط خريطة وكتب. ولا تذكر "أفلاطون" ولا "أرسطو" والرومان. نحن نتحدث عن زمننا الحالي، عن البشر الطبيعيين. ما شأني أنا برجل دنماركي وآخر سويدي وآخر تشيكي؟ وما هي جريمتنا بالضبط؟ أننا أردنا سقوفًا فوق رؤوسنا؟ أن نشتري سيارات؟ أعني، ماذا علينا أن نفعل؟ أن نعيش في كهوف ونتنقل على

البغال؟ أتريد أن ترجعنا إلى عصر قديم، عصر الكهوف والبغال؟ حسنٌ، إذا اتفقت معك على فكرة الكهوف، أين سنجد بغالًا نركبها؟ سنكون قد سبق وأكلناها كلها".

هكذا أراد "ستافروس" أن يرد عليه. ولكنه لم يقل له شيئًا، فاضطرت "أرتيميس" أن تسمع هي هذا الكلام لاحقًا.

- تخيلي! نحن نعيش في المطعم! أنبدو له باكستانيين؟ وهل أضيف شيئًا آخر؟ إذا كان لدي ما يملكه من ملايين، لكنت ساعدت أكبر عدد ممكن من الناس. لم أكن لأجلس في مكاني وأطلب من ابنة أخي خمسمائة في الشهر من أجل هذه الخرابة. بخيل! ما الجدوى من الأقارب أمثاله؟ بدلًا من أن يقول لكِ "طبعًا! خذي المكان، هو مكانك، وخذي ثلاثين ألف لتبدئي مشروعك".. بدلًا من أن يقول لكِ هذا، جاءت له الجرأة أن يطلب منك دفع إيجار وكتابة عقد وكل هذا. هذا البخيل لا يستحي. يا له من وغد!

قالت له "أرتيميس":

- هل أنت مجنون؟ بدلًا من أن تشكر القدر أننا وجدنا مكانًا جاهزًا لنبدأ فيه، مكانًا يطل على البحر، لديك الجرأة للتكلم عنه هكذا؟! أين ستجد مكانًا كهذا بهذا الأجر؟ الأجر المعتاد لمكان كهذا على الأقل ألفين أو ثلاثة. الرجل يسدي لنا معروفًا. وهو يحتاج الإيجار من أجل الضرائب.

- نعم، هو معروف كبير.. أتعرفين ما المعروف الحقيقي؟ أن يعطيكِ ملكية المكان.

- "ستافروس"..

- ماذا؟ هل أنا على خطأ؟

- تمالك نفسك، أرجوك. وكف عن التذمر. لا تنتظر معروفًا من أي أحد. أيًا كان ما سنفعل، سنفعله بأنفسنا. هكذا تجري الأمور. أتفهم؟

- يا "أرتيميس". "ستافجوس" يفهم.

- قلت لك تمالك نفسك. نحن أجانب هنا.

- ماذا تعنين بأجانب؟ ما هذا الهراء؟ أجانب؟ أين تظنيننا؟ كندا؟ أستراليا؟ ألسنا في اليونان اللعينة؟ أم أنا على خطأ؟

ردت "أرتيميس":

- لا يهم أين أنت، بل كيف تعيش. إذا كنت محتاجًا، وإذا كنت دخيلًا، فأنت أجنبي في كل مكان.

أطفأ "ستافروس" سيجارته، وارتدى معطفه.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لا أطيق سماعك وأنت تتحدثين مثله. سأخرج لأستنشق بعض الهواء. رائحة المكان هنا ألمانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدءا في تجهيز المكان في يناير بعد رأس السنة. شيئًا فشيئًا، أسبوعًا بعد أسبوع، ألف يورو بعد أخرى. سباكون، وعاملو إصلاح الثلاجات، وكهربائيون. فنيو الملاط والطلاء والأرضيات.. جميعهم. قضيا نهارهما في المساومات، وليلهما في الأحلام. أحلام كثيرة، أحلام مجنونة، أحلام بجانب البحر. "سيأتي الخير من البحر". قال "ستافروس" إن الأحلام الكثيرة تجلب الحظ السيئ، ولكنه لم يستطع أن يكف عنها هو نفسه. العام الأول كان ليكون صعبًا بالتأكيد. شديد الصعوبة. والعام الثاني أيضًا. ولكن بعد ذلك كانت الأشياء لتمضي بسلاسة. كانا ليدخرا بعض المال، ويصرفا الباقي على المكان. ولاحقًا كانا ليشتريا المطعم وقطعة الأرض، وينتهيا من أمر الألماني إلى الأبد.

كانا ليزرعا حديقة خضراوات وبستانًا، كل المنتجات عضوية، حتى لا يضطرا أن يعتمدا على "الفئران" الذين حاولوا أن يقنعوهما أن الثوم الصيني والطماطم الهولندية منتجات محلية. بعدها كانا ليشتريا مركبًا، و"تسافروس" كان ليذهب للصيد، حتى لا يضطرا أن يشتريا السمك من "الفئران" الذين ملؤا السمك بالمواد الكيميائية كما المومياوات. بعدها كانا ليشتريا أشجار الزيتون ليصنعا الزيت بنفسيهما، وأشجار العنب ليصنعا الخمر و"التسيكوديا". بعدها، كانا ليشتريا قطعة أرض كبيرة في "أجريميا" ليربيا الماشية الخاصة بهما. كانا ليصنعا الزبادي والجبن الخاص بهما، والبيض واللبن الخاص بهما. كانا ليصنعا كل شيء بنفسيهما، بلا حاجة لـ"الفئران" على الإطلاق.

كل شيء كان ليصبح ملكهما.

كي يكونا في غنى كامل عن "الفئران"، على البر أو البحر.

كانت لديهما خطط أخرى، أيضًا.

كانا ليبنيا فندقًا صديقًا للبيئة يستخدمان فيه منتجات محلية فحسب. لا مزيد من "لوبراك" و"ليبتون" و"أميتا". بعدها كانا ليفتحا متجرًا يبيعان فيه المنتجات المحلية أيضًا، ليكوِّنا أخيرًا شبكة كاملة لإنتاج وتوزيع المنتجات المحلية. كل المال الذي كانا سيكسبانه، كانا ليستخدماه في الجزيرة لمساعدة الآخرين في بدء مشاريع جديدة، ليعالجا الجروح التي تسببت بها "الفئران" في هذا المكان لأعوام طويلة: يبنون ما يريدون، أينما يريدون، كيفما يريدون. يسرقون من بعضهم، ومن الآخرين. يعملون لثلاثة شهور في السنة، ويقضون التسعة الأخرى في إجازات في "سيشيل" و"جستات". يدفعون خمسة يورو

من أجل “اسبريسو”، وعشرة من أجل “الجريك سالاد” – السلطة اليونانية. يستوردون الديوك المجمدة في مارس، ويبيعونها في أغسطس على أنها طازجة ومحلية. يقدمون لحم التمساح في “أبيسالوس”، ولحم الثور في “ريجوس”. يأخذون المال من برامج الاتحاد الأوروبي المخصصة لبناء فنادق صغيرة، ويبنون بها وحدات سكنية في اللامكان، ثم يتركونها بلا طرق فرعية، ولا كهرباء، ولا مياه. يدَّعون أن أراضيهم القاحلة الصلبة حقولٌ كي يأخذوا معونات الزراعة. يؤجرون البلطجية ليستخدموا العنف مع الناس ويكسروا نوافذ المحلات. يهرّبون الخمر المسروق من الاقتصاد الموازي، ويرشون في العموم كل عمدة، وموظف ضرائب، وشرطي يعرفونه.

كانت لديهما خططٌ كثيرة، أحلامٌ كثيرة. عندما جلسا مشبكين ذراعيهما على الصخور يتأملان البحر، تذكرت “أرتيميس” رأس السنة الماضية التي قضوها في أثينا قبل أن ينتقلا إلى هذه الجزيرة، عندما ذهبا ليشتريا الهدايا. كل من في المحلات كان لطيفًا معهما، وتمنوا لهما رأس سنة سعيدة، ونظروا لهما نظرة مترقبة، ليست نظرة طمع أو جشع، بل نظرة بها حزن وتطلع. تذكرت أنها قالت لـ”ستافروس” أنها تمنت بشدة لو كانا يملكان مالًا كثيرًا كي يدخلا المحلات جميعها، ويشتريا شيئًا من كل محل. تذكرت قولها له للمرة الألف إنها منذ كانت طفلة صغيرة أرادت أن تعطي شيئًا للجميع دون سبب محدد، فما الجدوى من العيش إذا لم تعطِ؟ وإذا لم تستطع أن تعطي شيئًا للجميع، على الأقل أعطِ شيئًا لمن حولك، أعطِ ولا تنتظر شيئًا في المقابل، أعطِ ولا تأخذ أي شيء في المقابل، كن دائمًا أول من يأخذ الخطوة الأولى. نعم، أعرف أن أشياءَ كهذه تعتبر صيحة جديدة في هذه الأيام، الكل يقول ذلك، وأعرف أن أفضل طريقة لتدمر شيئًا جيدًا ليس أن تحاربه، بل أن تسخر منه، أن تقلل منه، أن تحوله إلى “ميم” – مزحة - على الإنترنت، أن تحوله إلى شعار انتخابي، إلى إعلان في التليفزيون. أنا أصدق ذلك، أؤمن بهذا أكثر من أي شيء. أعرف أن هذا ليس شيئًا مبتكرًا، ليس شيئًا مبهرًا، أعرف أن هذا الكلام قيل ألف مرة، ولكن ربما هذه هي حقيقة كل شيء له قيمة، وعلى كل حال، كون الشيء غير مبتكر لا يعني أنه ليس صحيحًا، في الحقيقة، ربما تلك تكون هي الحقيقة في العادة: رتيبة، مملة، ليست مبتكرة على الإطلاق.

قال “ستافروس”:

- هذا الرأس الذي يعلو كتفيك، يا له من رأس! سيجعلنا من أصحاب الملايين يومًا ما.

حلما طوال الليل، كل ليلة. حتى عندما رجعا إلى المنزل من العمل مرهقين: “أرتيميس” من تحضير “السوفلاكي”، و”ستافروس” من توصيل الأشياء بشاحنته. كانا يذهبان إلى الصخور ويسرحان لساعات في الماء، وفي النجوم، وفي السحب المتناثرة في السماء، وأضواء الجزر الأخرى، وأضواء السفن

العابرة في البحر المفتوح، وأضواء مراكب الصيد الرامية شباكها، والملتقطة شباكها مرة أخرى. أضواء كثيرة تومض في الظلام.

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب يدخنان أو يشربان الخمر، يتحدثان أو يستمعان بصمت إلى صوت تصادم الأمواج. كان "ستافروس" يدفن وجهه في شعرها، يحاول أن يجد رائحة اللوز المر المختبئة تحت رائحة اللحم المشوي، محاولًا أن ينسى أيامًا كانت تنبعث من شعرها رائحة اللوز المر، ليس اللحم المشوي على الإطلاق. محاولًا أن ينسى، محاولًا أن يتعلم أن ينسى، أن ينسى، أن ينسى.

بعدما شعرا بالاستقرار، تمنيا أن يغيرا شكل المطعم ليصبح كالمركب، له صوارٍ وأشرعة، ومقدمة ومؤخرة، وجسر، وحتى عنبر للشحن. فكرا كثيرًا في الأمر، وبدت فكرة رائعة.

سفينة من أجل الخير الذي سيأتي من البحر.

كانت فكرة رائعة حقًا.

ونافعة أيضًا، في حال جاءت نهاية العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترك السيارة هناك عند الميدان، خلف كنيسة "سانت مارينا". صعد التل وهو يجري متجهًا إلى المنزل كي لا يضايقه الجيران مرة أخرى بتعزيتهم وأسئلتهم. كان أحدهم يقول:

- يا له من شيء مريع يا "ستافروس"!

ليسأله الآخر:

- هل وجدت الشرطة أي شيء؟

كان الرد جاهزًا عند "ستافروس"، ولكن في سره: "بالتأكيد. بالطبع وجدوا أشياءَ كثيرة؛ شعرًا، بصماتٍ، آثار سائل منوي. وجدوا كل شيء. سيصل "هوراشيو كين" في أية لحظة الآن من ميامي ليعاين الأدلة. نحن على الطريق الصحيح. هي مسألة وقت فحسب. هم على الأرجح سينهون التحقيقات في بضعة أيام. سيتم القبض على المجرمين وتسليمهم إلى العدالة. سيُفقأ الجرح المتقيح. سيتعمق المشرط في الجرح وينظفه. ستدغدغ النقانق الحلق. لا، عذرًا، هذا السيناريو ينتمي إلى مسلسل آخر."

تسلل داخل البيت، وذهب إلى النافذة، ونظر إلى الخارج من وراء الستار، يميل برأسه إلى الجنب كما الطائر الذي ينظر إلى نفسه في مرآة السيارة الجانبية. كان يلتقط أنفاسه، وعندما أشعل السيجارة بدأ يسعل بشدة لدرجة أنه أصبح على وشك الاختناق. بدت أنفاسه وكأنها مشوبة بطعم الدم. نظر

إلى الخارج مجددًا من وراء الستار. كانت فكرتها هي أن يجدا بيتًا في أثينا الصغيرة. أراد هو أن يعيشا خارج البلدة، في إحدى القرى المجاورة. عرف ما الذي كان سيحدث. عرف أنه عاجلًا أم آجلًا سيبدأ الجميع أن يتعاملوا وكأن المكان ملكهم، يذهبون ويأتون متى شاءوا. هذا ليس حيًّا، هذه بلدية. حتى اسمها ليس له معنى، فنصف الناس هنا ليسوا من أثينا. هنا يتطفلون ويدخلون بيوت جيرانهم وقتما شاءوا، يحضرون السكر، ويستعيرون القهوة، يحضرون "السباناكوبيتا" ويستعيرون زجاجة خمر، يأكلون معًا، ويشربون معًا، ويسهرون طوال الليل معًا. هذا أسوا شيء، ساعات الليل المتأخرة. يتحدثون لساعات حتى يأتي الفجر. الجميع يريد أن يحكي لك قصته. كل ما يحكونه هو هراء حدث منذ سنة أو اثنتين، ولكن الطريقة التي يحكون بها تهيئ لك أنهم يحكون قصصًا تنتمي إلى زمن الحرب أو ما قبل ذلك. يبدأون الحكاية بـ"في يوم.. في يوم منذ سنوات"؛ ثم يحكون شيئًا حدث في عام 2007 أو 2008 أو حتى 2010. يا لهم من معاتيه!

يجلسون مع بعضهم ينفّسون عن حزنهم، وكأنهم ينشرون ملابسهم المتسخة لتجف. أوقاتًا يضحكون، وأوقاتًا يبكون، وفي أوقاتٍ أخرى يضحكون ويبكون في الوقت نفسه. أوقاتًا يتحدثون عن تسريح العمال والإفلاس وعمليات الطرد، ثم في لحظة يتحول حديثهم إلى الحفلات والرحلات والإجازات. يتحدث الرجال عن زوجاتهم، وتتحدث النساء عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم، والأمهات عن بناتهن. يتحدثون عن كبار السن والأطفال، الجدود والجدات، أولاد وبنات الأخوات والأحفاد، الأحياء منهم والأموات. الكل يتكلم، طوال الوقت، في الوقت نفسه.

كان "ستافروس" يلكز "ستاثيس"، حارس المصحة النفسية في "ريجوس"، قائلًا:

- يا رجل، ألا تأخذهم كلهم وتحبسهم عندك؟ هم مجانين بما يكفي.

كان قد حذر "أرتيميس". منذ البداية طلب منها ألا تكثر في الكلام مع أحدهم. أن تكون حادة. أن تتظاهر بالغباء إذا ذكر أحدهم أمر المطعم، أن تغير الموضوع. أن تتوخى الحذر، فإذا تكلموا عنهما سيجلب ذلك لهما سوء الحظ. بالتأكيد كان يهدر صوته معها. كأنه كان يحدث نفسه. النساء.. قم بخياطة أفواههن، وأعينهن، واربط أيديهن وأرجلهن، وسوف يجدن طريقة يتحدثن بها رغم كل ذلك.

بعدها حدث ما كان يخشاه. بدأ الكل يتطفل، ويبدي رأيه في مشروعهما.

- عليكما بالطبع أن تجعلا المكان مطعم سمك.

- أجل، ولكن اكتفيا بالسمك الصغير، الأنشوفة والسردين.

- بالتأكيد. من سيشتري السمك الكبير في أيام كهذه؟

- أنا أرى أن تجعلاه مثل تلك المطاعم الفاخرة، أو مطعم عرقي. هكذا ستجذبان أفضل الزبائن، والسائحين أيضًا.

- يا رجل، أتعتقد أنهم سيبيعان الطعام الصيني مثلًا!

- ولم لا؟ ألا ترى كم السائحين الصينيين الذين يأتون هذه الأيام؟ هم يأتون في عيد الربيع، حتى قبل أن يبدأ الموسم.

- بالطبع، ولكن لم يقطعون كل هذه المسافة من "شنغهاي" ويأتون إلى هنا؟ ليأكلوا طعامًا صينيًا؟ هل أنتم مجانين؟

- اجعلاه مطعم مقبلات. هذه المطاعم هي الوحيدة التي تظل مفتوحة في الشتاء أيضًا.

- هل ستفتحان المطعم وقت الغداء؟

- من أين ستشتريان الطاولات والكراسي؟

- كيف سيكون الديكور؟

- ما رأيكما في تأجير فرقة موسيقية؟

- هل ستقدمان القهوة أيضًا؟

- هل تبحثان عن نادلين؟

بعدها قال "فرانكي"، مخنث بذيل حصان وفردة حلق كان قد طرد جده وهو في الثانية والثمانين من عمره في الشارع حتى يحول بيت العائلة إلى نُزُل:

- على أية حال، أنتما محظوظان. لا يتطلب مشروع المطعم أوراقًا كثيرة. لقد كنا نجوب في كل مكان لمدة ثلاث سنين نحاول أن نأخذ رخصتنا.

قالت له "أرتيميس":

- هذا لا يصدق، ثلاث سنين؟

قالت "أسي"، زوجة المخنث:

- هو لا يبالغ. ثلاث سنين كاملة، فالبيت مستوطنة محلية يحافظون عليها. وزارة السياحة، ومكتب الضرائب، ومفتش الحرائق، ومخططو، المدينة، وعلماء الآثار؛ جميعهم مررونا إلى بعضهم بعضًا كما كرة "البينج بونج". ما يزال تذكُّر هذا الأمر يجعل دمي يغلي حتى الآن.

أضاف "فرانكي":

- ولا تنسي التكاليف، والرشاوى.

قالت "أسي":

- بالطبع، لن ننسى هذا.

- وفي البداية كان هناك وشاة، وغرامات.

- أجل، وهذا أيضًا.

قالت "أرتيميس":

- وشاة؟ ومن يوشي بكما؟

نظر الاثنان إلى بعضهما وضحكا. أرخى "فرانكي" الشاش من على جبهته، ثم صب بعض "الويسكي" في كأسه وكأس "ستافروس". بعدها استدار وبلع قرصًا كان يمسكه في يده. توقفت "أسي" عن الضحك ولكزته بكوعها. أخذت كأس "أرتيميس" وملأته بالخمر. كانت يدها ترتعش. قالت "أسي" وهي تمسح عينها بإصبعها الصغير:

- مسكينة أنت. يبدو أنكما لم تعرفا بعد طبيعة المكان هنا. هل لديك أية فكرة عما يدور هنا؟ الشيء الوحيد هنا الذي يفوق عدده الواشين، هم "الفئران". ألا تعرفين حقًا؟ من سيوشي بنا؟ بل عليكِ أن تسألي عمن الذي لن يوشي بنا. أولًا الخزان النتن، ثم الألواح الشمسية على السقف. كل أسبوع كانت تأتينا سلسلة جديدة من الشكاوى، كانوا كالكلب الذي يعض يفمه على لعبة. حتى إنهم دخلوا على الإنترنت ليسجلوا الشكاوى، يدَّعون أنهم عملاء. قالوا إن الغرف تنبعث منها رائحة العفن، وإن هناك صراصير أو فئران، وإننا سرقنا أموالهم أو أخذنا أشياء من حقائب سفرهم. كان الأمر جنونيًا. في نهاية المطاف ضجروا من الأمر وتوقفوا عن الشكاوى، ولكن حتى تلك اللحظة كنا نبصق دمًا. صدقيني، دمًا.

قال "فرانكي":

- لست متأكدًا. ربما هناك واشون أكثر من "الفئران". في كلتا الحالتين، عليكما أن تتوخيا الحذر.

سألت "أرتيميس" وهي تنظر إلى "ستافروس"، والذي كان يجلس في مكانه صامتًا، ورأسه محنٍ:

- من ماذا؟ نحن على علاقة جيدة مع الجميع.

- ربما. ربما أنتما على علاقة جيدة مع الجميع، هذا لا يعني أن الجميع بالضرورة على علاقة جيدة معكما. نحن كنا على وفاق مع الآخرين أيضًا، ولكن على ما يبدو، هم لم يبادلونا الشعور نفسه. لهذا أقل لكما أن تحذرا.

سألتهما "أرتيميس":

- يا رفاق، ما الخطب؟ نحذر من ماذا؟

قال "فرانكي" لـ"أسي":

- قولي لهما. تكلمي.

ردت "أسي" قائلة:

- فلنهدأ. إنها الحادية عشرة وما تزالون تشربون زجاجتكم الثانية. فلنهدأ، حسنٌ؟

بعدها وجهت الكلام إلى "أرتيميس". قالت إنه لمدة طويلة كان يتطلع كثيرون إلى الحصول على المطعم. كل سنة تقريبًا كانوا يسألون الألماني إذا كان يريد أن يبيعه لهم ليحولوه إلى ملهى أو مقهى، أو ليهدموه ويبنوا مكانه فندقًا ما للسياح. منذ عامين أو ثلاثة، قيل إن الألماني قد قرر أخيرًا أن يعطيه إلى هذا الرجل صاحب السلاح الذي ينادونه بـ"جاجوار"، والذي يملك نصف الأماكن المطلة على البحر، ولكنه غير رأيه بعدها، ومنذ ذلك الحين و"جاجوار" ينوي أن ينتقم منه. قالت إنه عندما علم "جاجوار" أن الألماني أجر المكان لـ"أرتيميس" و"ستافروس"، كسر له السقف.

قالت:

- هذه هي الحياة هنا، الرجال مثله يجن جنونهم إذا لم يحققوا ما أرادوا. أعني، هو وأولاد عمه كانوا شركاء لسنين، وعندما قرروا أن ينهوا الشراكة منذ بضعة سنين، كادوا أن يتبارزوا بالمسدسات في الشارع. ستقولين لي إنهم يتعاملون مع ملايين، إن الجميع عندهم على قائمة الرواتب، رؤساء البلديات، ورجال الشرطة، وموظفي الضرائب، وإن لا أحد يسبب لهم المشاكل. ولكن ماذا عمن هم أقل منهم شأنًا؟ هم أشد سوءًا. يمكن أن يغنوا كالكناري من أجل المال. ألم يتسلل "كورنيث" لينصب "الكانتين" الخاص به على الشاطئ في "كاروس"، فأشعلوا النار له بالمكان خلال يومين؟ ألم يضربوا هؤلاء الشباب الصغار عند "ماجو" فقط لأنهم كانوا يبيعون الكعك المحلي والبطيخ للسائحين على الشاطئ؟ و"أسترينوس" الذي رحل وترك زوجة وابنين، أفقدوه صوابه فدخل الكهف وفجر رأسه هناك.

هؤلاء الأوغاد هم الأسوأ على الإطلاق، أمثال "زيليناكيس" والقادم من "إيكاريا". لا حدود لتجاوزاتهم. هذا اللعين القادم من "إيكاريا" علَّق لافتة خارج "العشش" ليعلن عن عاهراته الروسيات، والآن ينام حثالة المجتمع مع بنات في سن بناتهم، وتدعي الشرطة عندما تمر أنها لا ترى هذا. كلهم أوغاد، كلهم قوادون ومخبرون، جميعهم. كل فرد منهم، من أولهم لآخرهم.

استمعت لها "أرتيميس" ويدها تغطي فمها بإحكام كما لو كان هناك شيء بداخلها يريد أن يخرج. كانت تنظر إلى "ستافروس" - والذي كان جالسًا في مكانه يدوِّر كأسه بيده – من وقت لآخر، كان يبدو وكأنه لا يسمع سوى قعقعة الثلج وهو يهتز.

قالت أخيرًا:

- لا أصدقك.

- أي جزء لا تصدقين؟!

- كله يا "أسي". بحقك، هذه الأشياء لا تحدث حقًا، كلها غير منطقية. السياحة غنية في الجزيرة. الجزيرة مليئة بالمطاعم، والمقاهي، والحانات. كيف بُني كل هذا؟ مستحيل. أنا لا أصدقك.

- لا تخدعي نفسك يا فتاة. نحن لسنا في عام 1990، ولا حتى 2000. هذه منطقة حرب. هي حياة أو موت. كلما قل عددنا، كلما كان أفضل. جارك لن يتركك تأتين ببساطة لتأخذي الطعام من طبقه. انظري حولك. أتعتقدين أن السكان المحليين يشعرون بالسعادة الغامرة أننا أتينا؟ هم في العادة لا يطيقون بعضهم. أتظنين أنهم سيرحبون بنا بالأبواق والطبول؟ لمَ يلقبوننا بـ"الغرباء" في اعتقادك؟ أتحسبينها علامةجيدة؟

ملأت "أسي" كؤوسهم بالخمر، ووضعت الزجاجة على الطاولة، ثم أكملت حديثها:

- أيًا كان، أنا لم أقل كل هذا لأخيفكما. نحن فقط نريدكما أن تنتبها، أن تتوخيا الحذر. هيا، فلنتحدث عن أمر آخر، تبدين كما لو كنتِ رأيتِ شبحًا. احتسي بعض الخمر. تحلي بالشجاعة يا فتاة. لا تخشي الخوف، فقط الأموات هم من لا يخافون.

قال "فرانكي":

- هل ما سمعته عن أسعاركم صحيح؟ هل ستقدمون الـ"منيو" بعشرة يورو؟

لم يتحدث أحد لمدة دقيقة. نظر "فرانكي" إلى "أرتيميس"، والتي نظرت إلى "أسي"، والتي نظرت إلى "فرانكي" كما لو كانت تريد أن تصعد فوق الطاولة وتقلع عينيه. "ستافروس" وحده كان يحدق في كأسه طول الوقت، كما لو كان قد راهن نفسه أنه لن يشيح بنظره عنه حتى يسيح الثلج كله.

قالت "أرتيميس" أخيرًا:

- سننظر في هذا الأمر. لم نقرر بعد. سنرى، لا أعرف.قال "فرانكي":

- حسنٌ، ولكن إذا أردتِ نصيحتي، فلا تفعلا هذا.

- لماذا؟ فلنفترض أننا سنقدم الطعام لخمسين فرد في الليلة. خمسون مضروبة في عشرة تساوي خمسمائة. سنغطي تكلفة الإيجار في يوم واحد. لا نحتاج إلى أكثر من ذلك!

- الأمور لا تسير على هذا النحو يا "أرتيميس". أنت تفتحين مشروعًا، لا مطبخ حساء. لا يمكنك أن تفعلي أيًا ما شئتِ. عليكِ أن تلتزمي بالنظام.

- أي نظام؟

- النظام! أنا على سبيل المثال لا يمكنني أن أؤجر غرفة لشخصين بعشرين يورو في الليلة، بينما يأخذ كل من في فئتي مائة. الأمور لا تجري كما تظنين. هناك نظام. هناك عصابات.

قالت "أرتيميس":

- بحقكما، ستفقدانني صوابي الليلة. عما تتحدث يا "فرانكي"؟ أتحاول أن تقنعني أنه هناك عصابات للحانات والمطاعم؟

- هناك عصابات لكل شيء في كل مكان. اليونان بها عصابات أكثر من كولومبيا، ألا تعرفين ذلك؟ أعني، ليس من المسموح أن تشتري البطاطس بثمن، لا أعرف، سبعين سنتًا للكيلو، ثم تضعيها في الفرن وتبيعي الطبق منها بيورو ونصف، بينما يبيعه الباقون بثلاثة. لا يمكنك حتى أن تأخذي الثمن نفسه على طبق من السردين، ثم تأخذي خمسة عشر يورو للطبق الواحد بدلًا من ثمانية. تختلف الأشياء في أثينا، الناس أكثر هناك، والمطاعم أيضًا، لهذا يفعل الجميع ما يشاءون. هذا لا ينطبق علينا هنا. هنا عليكِ أن تلتزمي بالنظام. إذا لم تلتزمي فأنت تبحثين عن المشاكل. إذا اكتشف "الفئران" أنك تنافسينهم وتتفوقين عليهم، لن يتركوكِ وشأنك ببساطة. الأمر بسيط للغاية.

قالت "أرتيميس":

- لا أعرف. على الأقل لم يحدث شيء حتى الآن. لم يضايقنا أحد.

قال "فرانكي":

- وأتمنى ألا يضايقكما أحد. ولكن تذكري، هذه الأشياء كما الزلازل. لن تعرفي أبدًا متى ستحدث، وعندما تحدث، قد فات الأوان لتتصرفي.

قالت "أسي":

- بحقك، كفى، أنا على وشك أن ألقي بهذه الزجاجة من النافذة.

قالت "أرتيميس":

- نريد أن نفعل شيئًا مختلفًا، لدينا خطط كثيرة.

هز "فرانكي" كتفيه ورفع كأسه، ثم قال:

- حسنٌ. حظًا سعيدًا.

شرب "ستافروس" ما تبقى من "الويسكي" خاصته، ثم نهض والتقط معطفه.

قالت "أسي":

- لا تغضب يا "ستافراكوس". نحن نتحدث معكما من أجل مصلحتكما.

رد "ستافروس":

- لست غاضبًا، أنا فقط متعب. هل ستأتين معي أم أذهب وحدي؟ قالت "أرتيميس":

- أنا آتية. اسبقني، سألحق بك بعد خمس دقائق.

توقف "ستافروس" عند الباب، ونظر إلى "فرانكي"، الذي كان قد استلقى على ظهره على الأريكة محدقًا في السقف.

سأل "ستافروس" "فرانكي":

- ما الذي حدث لرأسك؟

- كنت أصلح بعض الأسلاك في النزل، فوقعت من على السلم.

- أسمعت عن قصة "ندبة جاجارين"؟

رفع "فرانكي" رأسه، وتحسس الضمادة الملفوفة حول جبهته، ناظرًا له نظرة استغراب.

- من هو "جاجارين" بحق الجحيم؟

- رائد الفضاء الروسي، "يوري جاجارين". بعدما أصبح أول من يسافر إلى الفضاء، فقد السيطرة تمامًا، وأصبح كمغنيي "الروك"؛ حفلات، ونساء، وبراميل "فودكا"، وما إلى ذلك. عند مرحلة ما كان في فندق مع ممرضة ما في الخفاء، اكتشفت زوجته الأمر، فذهبت إلى غرفته، وبدأت تصرخ وتقرع بشدة على الباب. انتاب "يوري" الذعر، فقفز من الشرفة، ووقع على رأسه على الرصيف. بعدها أصبحت لديه ندبة على جبهته، تمامًا حيث ستكون ندبتك، فوق الحاجب. عندما سأله الناس عنها بعد ذلك، كان يقول لبعضهم إن ابنته قذفته بصخرة، ولآخرين إنه وقع من أعلى السلم.

جلس "فرانكي" على الأريكة، وألقى نظرة على "أسي"، التي كانت تستمع وفمها مفتوح.

قال له:

- ما هذا الهراء يا رجل؟ ما علاقة هذا بأي شيء؟

قال "ستافروس":

- لا علاقة. تذكرت الأمر وحسب. أيًا كان، سأرحل. طبتم مساءً.. أو صباحًا على ما أعتقد.

عندما وصل إلى البوابة الأمامية، سمع "أسي" تصيح وتصفع أشياء على الطاولة. وقف في مكانه لمدة دقيقة يستمع، ثم ارتدى معطفه وخرج إلى الشارع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شرب زجاجة "تسيكوديا" ودخن سيجارتين أو ثلاث، ثم شد الكرسي ليصعد عليه ويدخل فتحة السقف.. كانت الطائرة الورقية على الجانب الآخر، مسنودة على الحائط. بالطائرة خطوطٌ أفقية ملونة، وذيلٌ طويل، وخيطٌ يمتد لأمتار. دفع نفسه بقوة ورفعها خلال الفتحة، ثم زحف على يديه وقدميه، وشد الطائرة إليه، وتركها تقع على الأرض وذيلها يتبعها. بعدها، وهو جاثم في مكانه، فكر أن يقطع بضعة أمتار من خيط الطائرة، ويربط أولها في ديكور السقف الخشبي، وآخرها حول رقبته، ثم يقفز من فتحة السقف، وينهي كل شيء هناك، في هذه المسافة الوجيزة بين الأرض وفتحة السقف. أن ينهي كل شيء للأبد، نهائيًا.. إلى الأبد.

خيط طائرة مربوط في ديكور السقف الخشبي.

كان يعلم أن هذا ممكن، فقد سمع بعض القصص؛ رجل ربط ربطة عنقه في خطاف في السقف، وآخر استخدم الوشاح الشتوي الخاص به وأنبوب التدفئة، وآخر استخدم رباط حذاء ومقبض الباب. ربطة عنق، رباط حذاء، وشاح؛ المتوفر.

خيط طائرة مربوط في ديكور السقف الخشبي.

صعب، ولكن ليس مستحيلًا.

نهائيًا، إلى الأبد.

فكر وهو يحمل بكرة الخيط أنه يريد أن تكون هناك قدمٌ في مخه، قدمٌ حديدية تمكنه من ركل الألم والمرارة بعيدًا كلما أتيا، أن يركل الخيانة واليأس، والأشرار، وقساة القلوب الذين يجردون الحب من قيمته، ليجعلوه يبدو وكأنه شيء ضئيل مثلهم. الذين يقولون إنهم يحبونك يوم الاثنين، وفي الثلاثاء لا ينظرون حتى إليك. يقولون إنهم لا يقدرون على العيش دونك يوم الاثنين، وفي الثلاثاء إنهم لم يعودوا يطيقونك. في الاثنين يقولون إنكما ستتخطيان هذه الأزمة معًا، وفي الثلاثاء إنك عليك أن تعتمد على نفسك،

فعلينا جميعًا أن نعتمد على أنفسنا. في الاثنين يقولون إنهم يريدون أن يعيشوا معك إلى الأبد، وفي الثلاثاء يقولون:

- ماذا تعني عندما تقول لي إني دخلت حياتك ودمرتها، وإني الآن أرحل كما لو أن شيئًا لم يكن؟ ماذا تعني؟ لا أفهم. أتعتقد أني خدعتك؟

الذين يقولون لك يوم الاثنين أنك دائمًا ما ستكون المفضل لديهم، وفي الثلاثاء إنك متعلق بهم زيادة عن اللازم، إنك تطلب الكثير، كف عن مراسلتي، كف عن الاتصال بي. الذين يضحكون من أعماق قلوبهم، بينما يسيل الدم من قلبك أنت. الذين يشاهدون التليفزيون بهدوء في المساء حتى يناموا، غير مكترثين بأي شيء في الحياة، بينما تحدق أنت خارج النافذة في الظلام، تشعر وكأن الظلمة تبتلعك. الذين يتخطونك في ليلة ويقضون أيامهم ولياليهم مع الأصدقاء في المقاهي والحانات، بينما تتذكر أنت كل شيء؛ كل لحظة، وكل كلمة، وكل قبلة، وكل ليلة، وكل يوم. تتذكر كل همسة، وكل دمعة، وكل حضن، وكل ابتسامة، وكل ضحكة. تتذكر، وتتذكر، وتتذكر، وتعاني بيدين مغموستين في الدماء، وقلبك غارق في الدماء، وعيناك غارقتان في دماء صافيةٍ بلورية/نقية. تعاني، كل ساعة، وكل لحظة، وكل صباح، وكل ليلة، محاولًا أن تستأصل كل ما تتذكر من جسدك وقلبك وعقلك، أن تقتلع كل ما يتذكره جسدك وقلبك وعقلك. تحاول جاهدًا أن تطفئ بالدم اللهيب الذي يعذبك. تعاني محاولًا ألا تتذكر، أن تنسى حلاوة العينين اللتين سرحتا في عينيك، ومذاق الفم الذي قبّلك، ورائحة الجسد الذي احتضنك. تحاول ألا تتذكر.. ألا تتذكر. تحاول أن تتعلم ألا تتذكر. وتشعر بالخوف. تخشى أنك لن تستطيع أن تتعامل مع كل هذا، أنك في يوم ما لن تتحمل، فتقترف أكبر خطأ، وتغمض عينيك وتأخذ نفسًا عميقًا، ثم تمسك الهاتف وتتصل بها، أو تتصلين به. أو الأسوأ: أن تذهب وتقف خارج منزلها، أو تقفي خارج منزله، في المساء البارد الممطر. أن تقف هناك لساعات في المطر والبرد، منتظرًا، تدخن وترتجف، عيناك محطمتان، قلبك محطم، عقلك محطم. تنتظر وتنتظر، حتى تراها تأتي، أو تريه يأتي. بعدها تلقي بالسيجارة على الرصيف الصلب المبتل، وتجر نفسك إليها، أو تجرين نفسك إليه. ستعلم في هذه اللحظة أنه يمكنك بسهولة أن تقع على ركبتيك وتزحف لتجثو أمام قدميها، أو تجثي أمام قدميه، وتقول بصوت متقطع:

- أرجوكِ! أرجوكِ، استمعي إلي! استمعي إلي لدقيقة فقط! دقيقة واحدة فقط! أنا أحبك! لا أبالي إذا فقدت عزة نفسي، كل ما يهم هو أني أخسرك، أنا أحبك، فقط أعطيني فرصة لأريكِ كم أحبك، كم أحببتك، كم سأحبك! أتوسل إليكِ، أنا لا أمانع الركوع على ركبتي، ولا أبالي أني أتوسل. فقط أعطيني فرصة. ليس من الممكن أن تكوني قد نسيتِ كل شيء! ليس من الممكن أن تكوني نسيتِ بهذه السرعة الليالي التي قضيناها معًا، وأمسيات يوم الجمعة، والثلاثاء الذي اشتريت لك فيه النظارة الشمسية، والسبت الذي ذهبنا فيه إلى

“هوندوس سنتر” واشتريتِ لي العطر، وبعدها أعطيتك عشرين سنتًا من أجل الحظ الحسن. لا يمكن أن تكوني قد نسيتِ! لا يمكن أن تكوني نسيتِ أمسية الأحد التي طبختِ فيها المكرونة بالجمبري والفلفل وجبن “الفيتا”، وكنتِ معتدة بنفسك وفخورة جدًا بجودة الطبق، وقلت لك هذه ليست مكرونة بالجمبري، وضحكنا، ثم ذهبنا إلى السرير، تاركين الطعام على الطاولة، واستحممنا معًا، ورششنا بعضنا بالماء في أعيننا ونحن نضحك، ثم أخيرًا أكلنا وشربنا كأس الخمر الذي اشتريته هو وحلوى “البروفيترول” من أجل التحلية. لا يمكن أن تكوني قد نسيتِ، فقط أعطيني فرصة، أنا أحبك أكثر مما أحببت في حياتي؛ أكثر مما سأحب في حياتي. لا ترحلي، أرجوكِ، لا تتركيني.

هذا ما ستقول، وأنت على ركبتيك جاثيًا، وبعدها سترفع عينيك وتنظر إليها، وترى أسوأ ما يمكن أن يراه شخص على الإطلاق؛ شخص مشلول راكع على ركبتيه من شدة حبه: وجهًا قاسيًا، جامدًا، غير مبتسم، كنت تظن حتى تلك اللحظة أنه مجرد قناعٍ يخبئ وراءه ألمًا، ولكن الآن اكتشفت، وكل جسدك يرتجف، أن ما ظننته قناعًا هو في الحقيقة الوجه الحقيقي للشخص الذي تحبه، الشخص الذي ظننت أنه يحبك. ستتساءل لوهلة، للحظة وجيزة، كيف بحق السماء تكون العينان اللتان لمعتا بعذوبة عندما تأملتاك هما العينان نفسهما اللتان تنظران إليك الآن بهذه اللامبالاة؟! بعدها، وارتجافك يشتد وأنت على ركبتيك، ستسمع أسوأ شيء ممكن أن يسمعه شخص مشلول راكع من حبه:

- قلت لك، لقد انتهى الأمر. أي جزء من هذا لا تفهمه؟ انتهى الأمر، انتهى أمرنا. انتهى.

كل شيء.

انتهى.

ما تزال عروس البحر الصغيرة جالسة على صخرتها، متكئة على ذراعها، ساقاها مثنيتان. ما تزال سارحة في البحر، جامعة شعرها في ناحية واحدة حتى لا يفسد الريح شكله. عروس البحر الصغيرة سارحة في البحر، ولكنها لم تعد صغيرة، ولم تعد عروس بحر.

قبل أن يخرج من السيارة، التفتت ونظرت ناحيته، وعندما فتح صندوق السيارة وسحب الطائرة الورقية، ابتسمت ونهضت لتقف على الصخرة فاتحة ذراعيها، يشع وجهها كما لو كان قد سُلط عليه فجأة دائرة ضوء خفية. أمسك “ستافروس” بالطائرة في يد، وبذيلها الملون في الأخرى، وتساءل وهو يمشي نحوها ما إذا كانت تلك الابتسامة له هو، أم للطائرة، أم لشيء آخر دونهما؟!

أصبحت السماء صافية، وأشرقت الشمس بقوة شمسين. هب نسيم عذب من الشمال جعل الأمواج تهتز.

صاح وهو يحدثها، واضعًا الطائرة بحذر على حصى الشاطئ، فاردًا الذيل بحرص حتى لا يتشابك:

- سيظننا الجميع مجانين. يطيّر الناس الطائرات الورقية في "اثنين الرماد". لا أحد يطيّر طائرة ورقية في يوليو. سيقولون إننا فقدنا صوابنا.

اتجهت إليه "أرتيميس" والفانوسان الصغيران في يد، وطوق النجاة المكتوب عليه رسالة ترحب بعرائس البحر في الأخرى. وقفت تنظر إلى "ستافروس"، تميل برأسها إلى الجنب.

- نعم يا "أرتيميس"، لا تقلقي. لا بأس، لم أنسَ.

أخرج فاتح الزجاجات من جيبه الخلفي وأعطاه لها، فأدخلته في سدادة زجاجة الخمر، ثم وضعت الزجاجة بين فخذيها المسودّين من الرماد، وأخذت تشد حتى فُتحت السدادة بصوت طقطقة. استنشقت رائحة الخمر، ثم شربت جرعة كبيرة وأعطت الزجاجة إلى "ستافروس".

- ما طعمها؟

- لطيف. طعمها مدخن.

أشعلا سيجارتين، وشربا الخمر وهما يقفان بجانب مطعم دمره الحريق، سارحين بصمت في البحر، يستمعان إلى البحر، يستنشقان البحر، ولا يتحدثان. بدت الجزر الأخرى من على بُعد بيضاء في ضوء الشمس، كأنها انعكاسات؛ سراب يبدو كجزر كانت موجودة في يوم من الأيام، ولكنها لم تعد هناك.

قالت له:

- أيمكنك أن تقطع جزءًا من الخيط؟

- لماذا؟

- أيمكنك؟

- أجاءتك فكرة أخرى؟

- عشرة سنتيمترات، أو ربما أطول.

سحب المطواة من حذاء "البووت" الخاص به، وثنى الخيط وقطع حيث طلبت منه "أرتيميس".

- اقطع قطعة أخرى.

- ماذا يجري؟

- اقطعها وحسب. سترى. عظيم. الآن اربط الخيط في الطائرة، ثم افرد الذيل.

- "أرتيميس".

- اربطها بشدة حتى لا تقع. واحرص على ألا يتشابك الخيط.

- بحقك يا "أرتيميس"! أنت بالتأكيد تمزحين. أتريدينا حقًا أن نطيّر طائرة؟ سيحسبوننا..

- حسنٌ، الآن سأحملها وأنت تجري. فهمتني؟ انتظر لحظة، هل معك قفازان؟

- لا أحتاج قفازين.

- ارتدي القفازين كي لا يجرح الخيط يديك. أتذكر ما حدث في الكرنفال؟

- لا، لا أتذكر. ولا أريد أن أتذكر أي شيء.

- حسنٌ. فلترتدِ القفازين إذًا دون أن تتذكر.

أمسكت "أرتيميس" بالطائرة من الجانبين، ومشت إلى الخلف ببطء، حريصة على ألا تخطو فوق الذيل. مشت حوالي ثلاثين مترًا، ثم توقفت. اشتدت الريح، فرفعت يديها إلى الهواء، فانتفضت الطائرة، ثم اعتدلت، كالكائن الحي الذي حُبس لفترة طويلة ويحاول الآن أن يهرب.

- جاهز؟

- لا.

- بعد العد إلى ثلاثة. واحد، اثنان، ثلاثة. اذهب! اجري! اجري!

نظر "ستافروس" إلى الخلف، وجرى إلى الأمام وهو يمسك بالخيط بقوة بيديه اللابسة قفازين، يحركه من وقت لآخر ليساعد الطائرة أن تطير، ولكنها كانت حتى الآن تنهض ثم تسقط مرة أخرى وكأنها ستصطدم بالأرض. نظر "ستافروس" إلى الخلف وهو يجري إلى الأمام، سامعًا "أرتيميس" وهي تشجعه. بدأت الطائرة في الارتفاع، تستوي في الهواء، ثم ترقص وتدور؛ كائن محبوس يتوق إلى الحرية، يتمنى لو ينقطع خيطه فيهرب أخيرًا، نهائيًا، إلى الأبد. توقف "ستافروس" عن العدو ونظر إلى الأعلى، يلتقط أنفاسه ويعرق، ورأى الطائرة تحوم عاليًا فوق رأسه كعلامة صغيرة ترتعش، تتناقض ألوانها مع زرقة البحر الصريحة.

تتبعته "أرتيميس"، حاملة معها الفانوسين، وقطع الخيط، وطوق النجاة البرتقالي. اتحد العرق مع اللطخات التي تغطي وجهها، فبدت كامرأة قد بكت دموعًا سوداء. ولكنها كانت تضحك. تضحك وهي تعرق وتلتقط أنفاسها، عيناها

تبدوان وكأنهما كوكبان أزرقان، كوكبان من الماء ينظران إلى الفضاء من على بعد ملايين الأميال.

- أترى؟ أترى؟ كنت على صواب. أترى كيف ارتفعت عاليًا؟

انتزع "ستافروس" القفاز من يده اليمنى، وأعطاه لها لترتديه. أمسكا بالخيط معًا، رافعين أيديهما الحرة لتحمي أعينهما من ضوء الشمس الساطع، يشعران بالطائرة وهي تتحرك وتشتد إلى الأعلى كلما هبت الرياح. كانت تلك العلامة الوحيدة أن الطائرة ما زالت متصلة بالخيط، لأنهما لم يعودا يريانه. امتزج الخيط بالسماء واختفى.

قالت "أرتيميس":

- ابحث عن صخرة.. صخرة كبيرة.

- فكرة أخرى؟

- سترى. هيا، يجب أن تكون كبيرة.

التقط صخرة ولف خيط الطائرة حولها مرات كثيرة. ركعت "أرتيميس" وربطت إحدى قطع الخيط في طوق النجاة. بعدها وقفت مجددًا، وطلبت منه أن يسحب خيط الطائرة ببطء شديد، حتى تصبح على بعد عشرة أمتار من الأرض.

- هلا أخبرتني بما تحاولين فعله؟

- اصبر. اسحبها بحرص. اسحبها بلطف كي لا ينقطع شيء.

أمسك "ستافروس" بالخيط حيث رُبط في الصخرة، وبدأ يسحبه ويمشي إلى الأمام حتى وصل إلى منحنى الطريق.

- ماذا أفعل الآن؟

- انتظر، أنا قادمة.

انضمت له "أرتيميس" وربطت خيط طوق النجاة في خيط الطائرة. طلبت من "ستافروس" أن يمشي أبعد، ثم تبعته، وعندما توقف، ربطت قطعة الخيط الأخرى من نصفها في خيط الطائرة وأحكمته جيدًا، ثم ربطت كلا الفانوسين في طرفي قطعة الخيط.

- حسنٌ. اترك الخيط الآن. ببطء. احترس.

- لن يتحمل الثقل.

- اتركه، افعل ما أقول.

- وأنا أقول لكِ إن الحمل كبير. ستهبط الطائرة. ستقع كالرصاصة. سترين.

- لن يحدث شيء. اتركه.

- حسنٌ. سترين. لا تصرخي في وجهي بعد ذلك. لا تفرغي غضبك في. لقد حذرتك.

أغمض "ستافروس" عينيه، وترك خيط الطائرة ببطء. عندما فتح عينيه، رأى طوق النجاة والفانوسين ينتفضون فجأة في الهواء. رقصوا للحظة، ثم حلقوا في الهواء عاليًا بثبات. حلقوا على بُعد عشرة أو خمسة عشر مترًا من الأرض، وبدوا وكأنهم ليسوا معلقين بأي شيء على الإطلاق، كأنهم كانوا في البداية يقعون من السماء، ثم لسبب سحري غامض، توقفوا فجأة عن السقوط وحاموا في مكانهم، في اللاشيء.

انتظر. كتم نفسه. انتظر، ويداه فوق رأسه لتحمياه من الشمس، ليرى الخيط وهو يرتخي وينحني؛ أن يرى الطائرة تسقط، تلتوي بسرعة مذهلة من الأعلى، وتصطدم بالأرض كالطائر الذي أصيب بطلقة نارية.

انتظر. انتظر ممعنًا النظر، كاتمًا أنفاسه، مستمعًا لقلبه الذي يدق كما دق من قبل، في المنزل، عندما كان يحسب المسافة بين فتحة السقف والأرض، أو كما دق ذاك اليوم واليوم الذي سبقه، وهو يمشي في الرفات المحترق، أو اليوم الذي سبقه، عندما شاهد مكتوف الأيدي اللهيب وهو يلتهم المطعم، أو اليوم الذي قضاه يحزم حقائبهما ليأتيا إلى الجزيرة، أو الأمسية التي وضع فيها مقتنياته في المكتب في أكياس بلاستيكية، أو تلك الليلة في ديسمبر وهو راكعًا على الرصيف، عندما رأى وسمع أسوأ ما يمكن لشخص أن يرى ويسمع، شخص مشلول، راكع، محب.

سألها:

- لِمَ تفعلين هذا الآن؟ ما معنى هذا؟ لِمَ أنت مصرة على أن نطير طائرة ورقية الآن، في منتصف يوليو؟

قالت له:

- لا أعرف. ربما لأننا لم نفعل هذا من قبل. ولأن هذا شيء نملكه، شيء يخصنا.

شاهدا الفانوسين وطوق النجاة يدوران بلطف في الهواء. وضعت "أرتيميس" ذراعها حول كتفيه، وشدته إلى جانبها بقوة كما يفعل الرجال.

- أترى؟ لم يحدث أي شيء. هيا نذهب ونجلس على الصخور. ما تزال لدينا زجاجة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الخيط غير مرئي في ضوء الشمس الساطع. بدا الفانوسان مع طوق النجاة كما لو كانا يطوفان في الهواء، يتدليان من اللاشيء فوق اللا شيء. كان الهواء يخف بين الحين والآخر، فيخبط الفانوسين ببعضهما، محدثين جلجلة غريبة تكاد أن تكون بها مواساة في هذا المنظر الطبيعي المهجور. مر أحد ما في شاحنة، ورأى الفانوسين وطوق النجاة طافين بالأعلى في الهواء، فهدّأ السرعة، وأخرج رأسه من نافذة السيارة، ونظر إليهم بفم مفتوح من الدهشة. سار بشاحنته إلى الأمام قليلًا ثم توقف. رجع إلى الوراء بشاحنته، وحدّق في السماء وهو يحك فكه. نظر حوله، وعندما رأى "أرتيميس" و"ستافروس"، بدأ يفهم أنهما السبب في هذا المنظر الغريب، ولكنه بدا أنه لم يفهم ما الذي فعلاه بالضبط، ثم ضغط على دواسة الوقود ورحل، ضاغطًا على بوق السيارة عدة مرات.

بعدها مر آخرون. توقفوا كلهم ليستوعبوا المنظر: فانوسان وطوق نجاة يرقصون في الهواء، يتدلون من اللا شيء فوق اللا شيء. امرأة عجوز رسمت علامة الصليب، وولد على دراجة نارية سحب هاتفه المحمول ليلتقط بضعة صور.

ضحكت "أرتيميس". انكمشت في حضن "ستافروس" وقبّلته. كان لون شفتيها أحمر من تأثير الخمر، ولكن لم يكن طعمها كطعم أي شيء محروق.

سألها:

- ماذا سنفعل؟

- أتريد أن نبقى هنا؟ يمكننا أن نرى القمر وهو يسطع. أعتقد الليلة سيكون قمرًا مكتملًا.

- أعني ماذا سنفعل بهذا الشأن؟

قالها "ستافروس" وهو يشير إلى المشهد خلفهما..

- ماذا سنفعل؟ لقد دُمرنا. كل هذا المال المهدر! ماذا سنفعل الآن؟ كيف سنعيش؟ وماذا عن الألماني؟ كيف سـ..

وضعت أصابعها على شفتيه، والتي احمر لونها هي الأخرى من تأثير الخمر، وفركتهما بقوة. قالت له:

- سنبدأ من جديد.

- لا تقولي لي هذا، أسمعتيني؟ لا تتحدثي وكأننا أبطال فيلم لهوليوود. "كل شيء سيكون على ما يرام، كن إيجابيًا"، وكل هذا الهراء.

قالت:

- سنبدأ من جديد. هذا ما سنفعل. سنتوصل إلى طريقة. ليس لدينا خيار.

- قد بدأنا بالفعل، وها هي بدايتنا بعد أن تحولت إلى رماد. انظري حولك! انظري لما حدث لبدايتك الجديدة. تحولت إلى الرماد. انظري فحسب. انظري.

مررت "أرتيميس" أصابعها في شعره، وتحسست أذنيه، وقرصت فكه.

قالت له:

- البداية ليست أبدًا وراءنا. البداية دائمًا ما تكون في المقدمة.

- عظيم، أنتِ الآن تتفوهين بهراء "كويلو" و"بوكيي" و"يالوم". عظيم!

- البداية دائمًا ما تكون أمامنا. قلها.

- أستتركينني وشأني؟

- قلها. البداية دائمًا في الأمام.

- لن أقول أي شيء.

- قلها.

-لا.

- قلها، أرجوك. لم لا تقلها. ألم تعد تحبني؟

نظرت في عينيه. بدأت عيناها تمتلئان بالدموع.

- حسنٌ، لا تغضبي. سأقولها.

- قلها بصوت عالٍ. أريد أن أسمعك تقولها.

- البداية دائمًا أمامنا، تبًا لكل هؤلاء "الفئران"، تبًا لهم.

أحرقته عيناه. دعكهما بإبهاميه، ثم نظر إلى البحر، ثم إلى "أرتيميس". قال:

- البداية أمامنا دائمًا.

مالت عليه وقبلته قبلة عميقة بشفتين متورمتين ومسودتين من الخمر الجاف، ثم توقفت، واحتضنت رأسه بذراعيها، وتخللت أصابعها شعره، ثم شدته إليها بقوة. قالت له:

- لم أخنك أبدًا. أبدًا. لا تنسَ هذا.

بعدها، وبحركة مفاجئة، اقتربت منه أكثر، وخلعت قميصه وقبلت ما دونه، غارسة أظافرها في ظهره. بعدها حدقت في عينيه وهي تجرده من باقي

ملابسه، ومارست معه الحب. وضعت رأسها على كتفه، فنظر إلى الفرق في شعرها الذي يبدو كالأفعى، وأغمض عينيه. تساءل للمرة الألف كم من رجل مارست معه الحب وفعلت معه كل هذا؟

ظل ساكنًا وسلم لها نفسه.

كاد أن يقول لها:

- ولكني أنا قد خنتك.

ولكنه أمسك لسانه مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر إلى شفتيها المفتوحتين المرتجفتين، ثم مسح شفتيه، وأخذ جرعة من الخمر ليغسل المذاق المر من فمه. أوشك المساء أن يحل، وبدأ البحر يمتلئ بالظلال، ظلال أشياء خفية. طار غرابان ينعقان فوق رأسيهما، ثم اختفيا في اتجاه الغروب. هدأت الرياح، ولكنهما كانا يسمعان صوت جلجلة الفانوسين المعلقين في خيط الطائرة من وقت لآخر. لم تعد رائحة الحريق تنبعث من الهواء. أغمض عينيه، وغطى وجهه بيديه. كانت رائحتهما كملح البحر، وكـ"أرتيميس"، وكشيء آخر.

نظرت إليه "أرتيميس" وجرعة خمر في فمها. ابتلعت الخمر وأرجعت إليه الزجاجة.

- ماذا قلت؟

- أقواس قزح. هي ليست بأقواس، بل دوائر.

- فعلًا؟ وكيف ذلك؟

- لا أعرف. لا أتذكر. شيء متعلق بالشمس والأفق.

أمسكت بيديه، ثم مالت عليه واحتضنته ناظرةً إلى البحر.

قالت له:

- إذًا ما ننظر إليه الآن هو نصف دائرة.

- أجل.

- وماذا عن النصف الآخر؟ أتعتقد بعمرنا سنراه؟

- لا أعرف. ربما.

- هذا جميل. هذه فكرة جميلة.

أغمضت عينيها، وعندما فتحتها مرةً أخرى التفتت لتنظر إلى الفانوسين وطوق النجاة، الذين أصبحوا ساحرين في ضوء الغروب الأرجواني أكثر من أي وقت آخر. انتابتها أفكار كثيرة، ولكنها لم تبكِ.

قالت وهي تنظر أمامها، وكأنها توجه حديثها للبحر:

- إنني في غاية الألم.

قال "ستافروس":

- أعلم ذلك.

- السبب الأساسي هو أنني لا أكره هذا البلد. لا أقدر على ذلك. هي كأمي، هكذا أرى الأمر أحيانًا. لا أستطيع أن أتناقش معها، ولا نتحدث لأكثر من خمس دقائق دون أن نتشاجر، وأوقات تخيفني أو تفقدني صوابي، ولكني لا أقدر أبدًا على كرهها. أبدًا. محال.

نظر "ستافروس" بعينيه إلى الأسفل، ولمح فرق شعرها. تردد للحظة، ثم تتبع هذا الخط بإصبعه، تتبعه على جلدها الدافئ المتعرق. رفعت رأسها ونظرت إليه وهي مبتسمة، ثم انتفضت فجأة وهي بين ذراعيه وبدأت في التصفيق.

- جاءتني فكرة!

- ويمكنك التخلص منها الآن وبالسرعة نفسها. لن أذهب إلى أي مكان، أو أقطع أي شيء، أو أحمل أي شيء. جاءتك أفكار كافية اليوم.

- اسمع، سنجعله تقليدًا أو ما شابه. سنأتي هنا في مثل هذا اليوم من كل سنة ونطيّر طائرة ورقية. ما رأيك؟ فكرة جيدة، أليس كذلك؟ سنخبر الجيران أيضًا، كي نأتي هنا جميعًا ونطيّر الطائرات. كل منا سيربط شيئًا ما في الخيط ويتركه معلقًا في الهواء، كما فعلنا مع الفانوسين وطوق النجاة. ثم نجلس كلنا معًا بأكلنا وخمرنا، وننظر إلى السماء لساعات. ثم سنقطع الخيوط ونترك الطائرات والأشياء ترحل، فيأخذها الهواء بعيدًا وتختفي. ما رأيك؟ ألن يكون هذا جميلًا؟

أخرج "ستافروس" سيجارتين، وأشعلهما وأعطاها واحدة. دخنا، واستمعا إلى الأمواج، واستنشقا الرذاذ المالح، ونظرا إلى أضواء الجزر الأخرى البعيدة، وأضواء السفن العابرة في البحر المفتوح، وأضواء مراكب الصيد الرامية شباكها، والأخرى الملتقطة شباكها. أضواء كثيرة تومض في الظلمة غير المكتملة. قالت "أرتيميس":

- سنحوله إلى طقس. علينا أن نخترع تقاليد جديدة، تقاليد خاصة بنا نحن. هذا ما علينا فعله.

نظر إليها وشرع أن يتكلم، ولكنه توقف. لعق إبهامه وفرك بصمة سوداء على جبهتها. سمعا صوتًا مرتفعًا لشيء ينهار يأتي من ناحية المطعم خلفهما. أحس بشعر رقبته من الخلف يقف كالإبر المشدودة بمغناطيس هائل، ولكنه لم يلتفت لينظر.

أشار بيده إلى الفانوسين.

- أتريدين أن..

قالت "أرتيميس":

- نعم، وأنت؟

وقفا واتجها نحو الصخرة حيث ربطا الخيط. نظرا لبرهة إلى الفانوسين وطوق النجاة يرقصون في الهواء. بعدها جثا "ستافروس" وسحب المطواة من حذاء "البووت" الخاص به. قالت "أرتيميس":

- أتمنى لو كان بإمكاننا أن نفعل ذلك: أن نربط نفسينا في خيط ونحلق بهذا الارتفاع وننظر إلى الأرض من الأعلى. تخيل! ألن يكون هذا جميلًا؟

- لا أعرف. يعتمد هذا على ما إذا كانوا سيقطعون خيطنا بعد ذلك أم لا.

عبثت بشعره وهي تضحك، ثم ركعت بجانبه وأمسكا بالخيط معًا.

- جاهز؟

نظرت "أرتيميس" إلى يديه، وشفتيه، وعينيه: مشوشة وحمراء اللون، بياضها تمزقه خيوط دموية صغيرة. لوهلة كادت أن تجزم أنها تسمع جفنيه وهما يجفلان، والدم وهو يجري في عروقه.

قالت له:

- أتعرف؟ ليس هناك سر. تحتاج الحياة أن نعيشها، ليس إلا. ما من سر.

ثنى "ستافروس" الخيط فوق الصخرة، وقطعه بحركة مفاجئة. فلت الخيط من يده وطار عاليًا. وقفا يشاهدان بذراعين متشابكين الفانوسين وطوق النجاة وهم يحلقون ببطء تجاه الغرب، تجاه الشمس الغاربة، حتى اختفوا من مرأى البصر، تمامًا كما سبقتهم الطائرة قبل ساعات.

قلما هبت الرياح من ناحية الشرق على هذا الجانب من الجزيرة. ربما لم تهب هكذا من قبل، وربما لن تفعلها مجددًا. تحدثا لبرهة عن هذا الأمر، لاحقًا، عندما جلسا مرة أخرى على الصخور، واتفقا أنهما لم يعودا يباليان. لم يعودا يكترثان. لم يعد يضايقهم الأمر على الإطلاق.

لأن في تلك الليلة الرياح كانت تهب من ناحية الشرق بكل تأكيد.

عندما تهب الرياح الشمالية على هذه الجزيرة، تحطم كل شيء في طريقها. ولكننا لم نرَ شيئًا يماثل ما رأيناه اليوم أبدًا. انطلقت حافلة المدرسة من المدينة ليذهب ويلتقط الأطفال من "أنتيلالوس" والقرى الأخرى. عندما وصل إلى الطريق المستقيم الذي نسميه "الأبواب"، أزاحه الهواء من طريقه فانقلب على الصخور. وقع مسافة عالية من فوق الجرف.

- أتصدق؟ لم يحدث مثل ذلك من قبل. لحسن الحظ نجا السائق، ولكن تخيل إذا كان الأطفال بالداخل!

- حسنٌ.

- ماذا تعني بـ"حسنٍ"؟

- إذا لم تكن هذه علامة، فماذا تكون؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمارس أبي تمارينه المسائية. مرر خيطًا لونه أحمر من بين أصابع قدمه اليسرى، وبدأ يشده للأعلى بيده وهو يعد من واحد إلى سبعة وسبعين. توقف لبرهة، ثم هز أصابع قدميه كما لو كان أحد ما يدغدغهم، ثم بدأ من جديد. هي حيلة جديدة عليَّ أن أراقبها بحذر، لأن من الخطر أن تتركه وحده حتى إذا لم يكن معه سوى خيط. قال لي:

- الأمر حقيقي. عندما يتحدث الفرنسيون والألمان عن "الرادون" و"البيكريلات"، تقفون وتستمعون إليهم كالأغبياء. عندما يتحدث "ياننيس" ما من أحد منكم يلقي له بالًا. ما من مؤمن فيكم. بالمناسبة، أريدك اليوم أن تجمعي كل البلهاء الأميين في ميدان البلدة، وتخبريهم بأننا نقول "وضعنا أيدينا على لب المشكلة" وليس "فيها". و"وضعنا الأمر في الاعتبار"، وليس "على الاعتبار". "على" بدلًا من "في"، و"في" بدلًا من "على". أغبياء أميون، جميعهم. وعندما تذهبين إلى الكنيسة يوم الأحد، قولي لـ"باباجيم"، هذا القس السكير، أن يتخلص من رموز الثالوث المقدس التي تصور الرب بشعر أبيض ولحية، كرجل عجوز يجري حوله أحفاده، لأن "الأرثوذوكس" يرسمون فقط ما يرونه، وبما أننا لم نرَ الرب فعلينا ألا نرسمه. وأيقونة "سانت مارينا" التي تصورها وهي تحمل الشيطان من قرونه، عليه أن يتخلص من هذه أيضًا. هذه ليست هوليوود، لا حاجة إلى أن نصوّر الشيطان بقرون وما شابه، فنحن نرسم فقط الأشياء المادية، والشيطان هو الشر نفسه؛ فهو غير مادي. ولكن انتبهي، هو غير مادي، ولكن لا يعني ذلك أنه غير موجود. الشر موجود، ولكن في صورة غير ملموسة، لأن مخلوقات الرب وحدها هي التي نستطيع أن نلمسها، والرب لم يخلق الشياطين، هو خلق الملائكة فحسب، فقرر بعضهم لاحقًا أن يصبحوا شياطين. قولي له هذا. لقد سئمت الملحدين ورجال الدين المزيفين.

لقد طفح الكيل. إذا لم تسمعي كلامي سأضطر أن أذهب إلى هناك في يوم وأتخلص من تلك الأيقونات بنفسي.

تنهد ونظر إلى السقف، وبدأ يعد مجددًا في سره، يشد الخيط إلى الأعلى والأسفل. قلت له:

- هم سويسريون.

نظر إليّ مستغربًا، رافعًا حاجبه الأيسر، ما زال يعد. قلت:

- خبراء الزلازل. ليسوا بفرنسيين وألمان، بل هم سويسريون وألمان.

لم فعلت ذلك؟ في لحظة احمر وجهه بشدة، وأفلت الخيط من يده، وبدأ يركل الغطاء بقدمه اليسرى محاولًا أن يلتفت لي. لم فعلت ذلك؟ لم فتحت فمي وتكلمت؟ خطأ أبله، خطأ كبير.

- هل انحدرنا إلى هذه الدرجة؟

ارتعش صوته، وبدى فمه معوجًا أكثر من ذي قبل.

- هل انحدرنا إلى هذه الدرجة، حتى تسخر فتاة تافهة مثلك من أبيها المريض؟ حسنٌ، هذه أيضًا علامة. اليوم هو يوم أسود، أسود كالغراب. في الصباح تقع حافلة مدرسة من فوق الجرف، وفي المساء تسخر فتاة من أبيها. اسمعوا! علامة كبيرة شهدتها السماء، عندما سخرت الفتاة من أبيها! ستأتي علامات أخرى عما قريب! قريبًا سترين سمكًا يتلوى على الأرض الجافة كجفني رجل يرى كابوسًا في منامه. وسترين أحياء يتقاتلون حول جثة شاب كان في حياته وسيمًا ومضطهدًا مثل المسيح. سيحدث هذا في القريب العاجل، فأهبي نفسك. كل هذا آت، في القريب العاجل. وقتها ستصدقينني، ولكن بعد فوات الأوان.

أغمض عينيه واستلقى على الوسادة. كان مغطى بالعرق، ولكنه رفض أن أمسح له عرقه. هز رأسه يمينًا ويسارًا وهو يئن، وضرب نفسه كما يفعل عادة عندما يحين وقت أخذه "الدوفالاك".

بعدها جلس مجددًا على سريره، وأمسكني من ذراعي، وشدني إليه، وهمس لي:

- احترسي. اسمعيني جيدًا، عندما تحدثين القس يوم الأحد عن الأيقونات، تأكدي أولًا أن ما من أحد يسمعك.

قلت له:

- حسنًا، سأحرص على ذلك.

- أحسنت! لا أريد أن يعرف أحد أن أباكِ يؤمن بالرب. في أيام كهذه عندما تقولين لأحد أنك مؤمنة، ينظرون إليك كما لو كنتِ تقولين إنك تستقبلين فتيات صغيرات في غرفة معيشتك كل ليلة وتعطيهن الحلوى والمصاصات وتدللينهن. احذري. ليس من أجلي أنا، من أجلك أنت. لا أريد أتباع "داوكين" و"هيتشين"، وهذا الآخر الفرنسي الذي لا أذكر اسمه، "أونفريي"، أن يسخروا منك حين يرونك في الشارع ويقولوا: "ها هي ابنة "ياننيس" الذي يؤمن بالرب!"، لذا احترسي.

قلت له:

- حسنٌ، لقد فهمت.

الليلة سيوقظني مجددًا، صائحًا من غرفته، وسيطلب مني ألا أسهر طوال الليل أنظر خلال النافذة على النجوم والسحب، لأن لدي أعمالًا أنجزها في الصباح الباكر. سيقول لي:

- أول ما ستفعلينه في الصباح هو أن تأخذي بعض المال من البنك، وتعطيه للعمدة الأبله ليشتري حافلة جديد. وقولي له إنني من الآن فصاعدًا سأركب مع الأطفال وهم ذاهبون إلى المدرسة، ما من سبب ليخافوا. حتى إذا هبت الرياح بقوة الإعصار، سأكون معهم في الحافلة، لا داعي للخوف.

ثم سيقول لي وهو يشمّر كم منامته:

- انظري إليّ! انظري!

ثم يستعرض عضلاته ويعض على أسنانه ليبرز فكه.

- انظري إلى هذه العضلة، تبدو كفأر تحت جلدي. ليس فأرًا، بل جرذ. لا داعي للخوف. سأكون هناك معهم.

وسيضيف:

- علينا أن ننقذ الأطفال. على الأطفال أن يكونوا موجودين حين تأتي النهاية. عليهم أن يروا النهاية. عليهم أن يكونوا موجودين حين تأتي النهاية.

الأطفال، النهاية.

النهاية.

سيقول الأخيرة وهو يهمس في الظلام.

- النهاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

سوف أبتلع أحلامك
اقتلوا الألماني
سيأتي الخير من البحر
الطائرات الورقية في يوليو